كلمات

النهـر والنبـع

□ ١ □

في الجغرافيا، نتعلم، لدى دراسة نهر، أن نسال، أولاً: من أين ينبع ؟! . ذلك أن معرفة النبع تعطي للماء خصائص الأرض . من قال إن طعم الماء ، في الأنهار ، واحد ؟! .

كذلك طعم الشعر ! . تذوقه ، فتعرف فيه نكهة الأرض التي منها نبع . تنظر في مراياه ، فترى ملامح التربة التي منها خرج وجهك : العشب ، والمطـر ، والشجر ، والثلج ، والحجارة التي عليها ترقرق ، والأدغال التي بينها تغلغل ، والرياحين التي اخضرت بين يديه . . . هكذا ، لا يصير غريباً على الفم والأنف واللسان واليد . . .

هكذا ، كما تتناول نفسك ، تتناول الشعر !

□ ٢ □

((هذا الشعر ينبع مني !)) تقول لنفسك ، ((وأنا أنبع من أرض ذات خصائص!إذن،هذا الشعر يحمل خصائصي!))، خصائصي ؟! أعني : علاماتي الفارقة ! أعني : هويتي ! .

ذلك هو سؤال النبع ، بالنسبة للشعر ، للفن بعامة ، وأخيراً للثقافة كلها . سؤال النبع يعني سؤال الهوية . ولا أحد يعبر العالم بهوية مزورة .

على الحداثة ، إذن ، ان تواجه اسئلتها الجديدة . واول هذه الأسئلة سؤال الهوية . يستدعي سؤال الهوية سؤالاً في الحداثة ذاتها : اهي مجرىً خارج التراث ؟! . وهذا المجرى،اهو حصىً وعشب على الضفتين فقط:اهو شكل؟! . هل الحداثة روح أم جسد ؟ ام كلاهما معاً ؟ روح جديدة في جسد جديد ؟! هل هي غاية لذاتها بذاتها ؟ ام جزء من مشروع عربي حضاري عام ؟! ..

□ ٣ □

الآن ، وقد صارت الحداثة نهراً ، يحق لها البحث عن النسب . نسبُ الحداثة العربية ليس في « اليوت » او « بريتون » أو « بيرس » او « نيرودا » . نسبُها في شجرة الشعر الخضراء الباسقة ، بالف غصن ، في افق التاريخ العربي . اولئك روافد ، لا ينابيع . روافدُ لابد منها . إنما ، بمقدار ما تضيف إلى عمق المجرى ، لا بما تحولُ سيرورة النهر .

□ ٤ □

السؤال في النسب ، يستدعي بالضرورة السؤال في العلاقة .

وسؤال العلاقة يمكن ان يصاغ على الشكل التالي : كيف يحمل النهر خصائصه ، دون ان ينقطع عن النبع ؟! : ينفصل عنه دون ان ينفصل ، ويتصل به دون أن يتصل !

رئيس التحرير

الدراسات والبحوث:

مفهوم «البطولي» في الشعر العربي

د. فؤاد مرعي

باريس باسترناك: طريق لاكتشاف العالم

د. أيمن أبو الشعر

آراء حول نظرية الرواية

د. زهير ياسين الشليبة

مفهوم «البطولي»

في الشعر العربي

د. فؤاد مرعي

(١)

ان مفهوم « البطولي » هو المفهوم الجمالي الأكثر بروزا في الشعر الملحمي - الغنائي عند العرب الجاهليين . وقد جسده هذا الشعر في صورة الفارس البدوي المتفاني في اخلاصه لقبيلته وفي عدائه لخصومها، المتحلي باخلاق بطولية ترتبط ارتباطا عضويا بطبيعة الحياة القبلية العربية . ولم تكن سيادة هذا المفهوم نتاج رغبات الشعراء الذاتية ، بل كانت استجابة لشروط حياة البدو الاجتماعية القائمة على التنقل

الدائم في الصحراء القاسية بحرها الشديد وبردها القارس وعواصفها الرملية ووحوشها وشح مياهها وقلة مراعيها ، وعلى العيش تحت الخيام في تجمعات ركيزتها الاساسية القبيلة التي يلتصق بها الفرد التصاقا يطغى في اغلب الاحيان على شخصيته ويذيبها في شخصية القبيلة ، محققا للفرد ، مقابل ذلك ، المساواة بسائر افراد القبيلة ، والحماية من الغزوات الكثيرة التي كانت غايتها نهب قطعان الماشية وسبي النساء او الاستيلاء على المراعي ومصادر المياه او الثأر ، وهو الاسلوب الاساسي في تنظيم العلاقات بين افراد القبيلة الواحدة ، وكذلك بين القبيلة والقبائل الاخرى .

ان هذا الالتصاق بالقبيلة جعل النسب معيارا اساسيا في تقويم الظاهرة البطولية . ولم يكن هذا المعيار خاصا بالشعر ، بل كان معيارا اجتماعيا شاملا . ففي المجتمع العربي الجاهلي لم يكن بمقدور الفرد تصور نفسه خارج القبيلة ، فهو ، اذا عجز عن الانتساب الى قبيلة وعن ذكر اسماء آبائه واجداده كان موضع الاحتقار الشامل ، وكانت عراقة النسب الملازمة لصورة الفارس في الشعر الجاهلي تعبيرا عن هذا المعيار الشامل . ان من الملفت للنظر ان تصوير الشاعر الفارس لنسبه لم يكن يتم بصيغة المفرد بل بصيغة الجمع . وهذا يذكرنا بما سبق ان قلناه عن العلاقة بين الشعر الجاهلي والاغاني الشفوية القديمة ، لا سيما اغاني الحرب .

وسنورد للتدليل على ما نقول بعض النماذج من شعر الفروسية الجاهلية . فهذا طرفة بن العبد يقول :

ان نصادف منفسا لاتلفنا ... فرح الخير ، ولا نكبو لضر
اسد غاب فاذا ما فزعوا ... غير انكاس ولا هوج هذر
ولي الاصل الذي في مثله ... يصلح الآبر زرع المؤتبر
نحن في المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقر

ولقد تعلم بكر اننا فاضلو الراي وفي الروع وقر
نذر الأبطال صرعى بينها ما يني منهم كمي منعفر (١)

ويخاطب عمرو بن معد يكرب الزبيدي بني الحارث وقد اغار عليهم :

ابني زياد انتم في قومكم ذنب ونحن فروع اصل طيب
نصل الخميس الى الخميس وانتمو بالقهر بين مربق ومكلب(٢)

اما معلقة عمرو بن كلثوم فتكاد تكون كلها اغنية جماعية للحرب . فالتغلبيون في هذه المعلقة أبطال كلهم والشاعر ينطق باسمهم جميعا مخاطبا الملك عمرو بن هند :

ابا هند فلا تجعل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا
بانا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا
متى ننقل الى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها طحينا
نطاعن ما تراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف اذا غشينا
بشبان يرون القتل مجدا وشيب في الحروب مجربينا
اذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا (٣)

ويجدر بنا هنا أن ننوه بأن انتقاءنا لهذه النماذج الشعرية جاء اعتباطا لم نتقيد فيه بالتسلسل الوثائقي أو التسلسل التاريخي لورود هذه الاشعار . فكل ما يعنينا فيها هو انها كلها استخدمت ضمير المتكلم بصيغة الجمع . وفي هذا دليل واضح على ان الشاعر كان في ابداعه الفردي يجسد مثل الجماعة وعلى انه لم يكن يسعى الى تمييز نفسه منها . وفيه ايضا تعبير عن الأهمية الفائقة لانتساب الشاعر الفارس الى اصول كريمة لا عيب فيها ، كما ان فيه ما يشير الى أن مفهوم « البطولي » ليس مفهوماً يعبر عن حالة فردية . فالفارس البطل

ليس فردا ، بل هو بالضرورة واحد بين مجموعة متساوية في تجسيدها لمعايير البطولة . ان اهتمام الشاعر الفارس بنسبه يعود الى انه يقاتل ضمن قبيلة يحمل اسمها ويدافع عنها ، ولذا فاعماله البطولية ليست أعمال فرد بل اعمال القبيلة كلها .

غير أن معيار النسب ، على اهميته ، لم يكن موجودا في جميع تجليات مفهوم « البطولي » في الشعر الجاهلي . والسبب في ذلك هو بلوغ المجتمع العربي الجاهلي في زمن ابداع هذا الشعر مرحلة الانتقال من المجتمع القبلي البدائي الى المجتمعات المستقرة . ففي خلال القرن السادس وبداية القرن السابع تحددت ملكية كل قبيلة من القبائل العربية لمساحات معينة من المراعي والينابيع في شبه الجزيرة لم تكن تغادرها الا في حالات الضرورة التي يفرضها القحط . وكانت هذه المراعي ملكا عاما للقبيلة في بداية الامر . غير أن التفاوت في امتلاك قطعان الماشية في داخل القبيلة الواحدة وعدم كفاية المراعي ، ادیا الى سيطرة الاثرياء من افرادها على الينابيع وافضل المراعي واغلاقها في وجه الآخرين . وانحصرت زعامة القبيلة بين افرادها المنتمين الى بيوتاتها الثرية ، ثم اصبحت وراثية تقريبا . وهكذا نشأت مجموعة من البطون والافخاذ القبلية المعترف لها بعراقة النسب وبالنفوذ الواسع والسلطة في القبائل. ونشأت في الطرف المقابل لهؤلاء مجموعات متفاوتة في المكانة الاجتماعية وعراقة النسب ، على الرغم من انتسابها الى القبيلة نفسها ، كان المعتوقون والعبيد ادناها مكانة .

وكان من نتيجة التقسيم الطبقي الجنيني الذي عرفته القبيلة ظهور اتجاهين في تجلي معيار النسب في مفهوم « البطولي » بالاضافة الى ما كنا قد استعرضناه سابقا . اتجاه يصور فيه الشاعر الفارس انتماءه الى فقراء القبيلة لا الى مجموعها . وسنستعرض هذا الاتجاه في شعر عروة بن الورد .

واتجاه ثان يصور فيه الشاعر الفارس بطولته الفردية بوصفها وسيلة من وسائل البرهان على حقه في شرف النسب . وسنستعرض ذلك من خلال شعر عنترة العبسي .

لم يكن خروج الفارس في شعر عروة عن طاعة قبيلته نزوة فردية ، ولم يكن ما تعرض له من فقر وحرمان حدثا فردا مرتبطا بظروف حياته الشخصية ، بل كان سبب ذلك كله التطور الاجتماعي الذي طرأ على الحياة القبلية العربية فقسم القبيلة الى فقراء واغنياء .

فللموت خير للفتى من حياتـه فقيرا ، ومن مولى تدب عقاربه
وســائلة اين الرحيل ؟ وسائل ومن يسال الصعلوك اين مذاهبه؟
مذاهبـه ان الفجـاج عريضة اذا ضن عنـه بالفعال اقاربـه
فلا اترك الاخوان ما عشت للردى كما انه لا يترك الماء شاربه (٤)

هكذا يستبدل الفارس في شعر عروة بالانتساب الى القبيلة الانتساب الى الاخوان الفقراء فيكتسب معيار النسب في مفهوم « البطولي » معنى جديدا لا يتيح للشاعر الفارس امكان التحرر من المفاخرة بالنسب القبلي فحسب ، بل يمكنه ايضا من مهاجمة ابناء قبيلته الاثرياء والطعن في اخلاقهم من دون ان تتأثر صورة الفروسية في شعره .

اني امـرؤ عـافي انـائي شـركة وانت امـرؤ عافي انائـك واحـد
اتهـزأ منـي ان سمنت وان ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
اقسم جسمي في جسـوم كثـيرة واحسو قراح الماء والماء بارد (٥)

لقد كان الفارس في شعر عروة ، اذن ، يميز نفسه من افراد قبيلته الاثرياء ولا يحرص على الانتساب اليهم . بل لقد بلغ به الامر ان اتهم اخواله من بني نهد بالجبن فقال إنهم :

ثعالب في الحرب العوان فان تبخ وتنفرج الجلى فانهم الاسد (٦)

وطعن في سيادة الاثرياء منهم وسلطانهم ، لانهم ينفردن بما يملكون من ثروة مؤكدا انه لا يفعل ذلك لو اصاب ثراء ، ولا يلجا الى هـؤلاء الاغنياء لو حل به الفقر ، فقال :

ما بالثراء يسود كل مسود ... مثر ولكن بالفعال يسود
بل لا اكاثر صاحبي في يسره ... واصد ، اذ في عيشه تصريد
فاذا غنيت فان جاري نيله ... من نائلي وميسري معهود
واذا افتقرت فلن ارى متخشعا ... لأخي غنى معروفه مكدود (٧)

أما الفارس في شعر عنترة العبسي فقد ميزته القبيلة من نفسها . انه ابن سيد من سادات عبس من امة حبشية سوداء . وأصل امه هو الذي حرمه من شرف النسب ، فجاءت صورته مجسدة للاعمال البطولية الفردية التي لم يكن هدفها الطعن في معيار النسب الى القبيلة : بل كانت تهدف الى اثبات حقه في انتسابه . اليها . وهذا هو السبب في ان صورة الفارس في شعر عنترة ليست صورة بطل بين مجموعة تساويه في تجسيدها للبطولة ، بل هي صورة البطل الفرد الذي يحل محل القبيلة المهزومة ليحقق لها النصر الذي كانت تسعى اليه :

واذا الكتيبة احجمت وتلاحظت ... الفيت خيرا من معم مخول(٨)

ان الفارس الشاعر يبرز نفسه في شعر عنترة ويقلل من شأن فرسان القبيلة الاخرين مؤكدا ان رفعة النسب لا تكون بالتفاخر بالاعمام والاخوال وانما تكون بالفعال البطولية .

ومن قال اني سيد وابن سيد ... فسيفي وهذا الرمح عمي وخاليا(٩)

غير ان هذا الموقف المختلف عن الموقف العام من معيار النسب في تصوير مفهوم « البطولي » في العصر الجاهلي ، مختلف ايضا عن الموقف الذي وقفه عروة بن الورد من هذا المعيار حين حوله من انتساب الى القبيلة الى انتساب الى فقرائها . فعنترة لا يتنكر لافراد قبيلته ، بل يدافع عنهم . انه يدافع حتى عن اولئك الذين يرفضون انتماءه اليهم . وما ادعاؤه البطولة لنفسه وانكارها فيهم الا وسيلة لاقناعهم بحقه في هذا الانتماء ، فلما تحقق له ما اراد ، صار يفخر بانتسابه الى القبيلة . لكن

افتخار عنترة بنسبه ظل مشبعا بروح البطولة الفردية ولم يكتسب السمة الجماعية التي رأيناها عند غيره من الشعراء الجاهليين . وهو يبدو في ذلك مفاخرا بما أنجزه بأعماله البطولية من اعتراف القبيلة به :

قدكنت فيما مضى ارعى جمالهم — واليوم أحمي حماهم كلما نكبوا
لله در بني عبس لقد نسلوا — من الاكارم ما قد تنسل العرب

ومهما كانت طبيعة الاختلاف بين موقفي عروة وعنترة من معيار النسب ودوره في تحديد مفهوم « البطولي » فان الموقفين جاءا نتيجة للتغيرات الاجتماعية التي ادت الى تقسيم القبيلة تقسيما طبقيا جنينيا : وعبرا عن تعمق ادراك الفرد لذاته وقدراته ، وعن تعمق سيطرته على سلوكه الشخصي في وجه التقاليد الجماعية السائدة .

(٢)

لقد كان لعالم العرب البداة المختلط والمشوش والقاسي والعنيف والمعادي ، في اغلب الاحيان ، للانسان دوره الكبير في تأصيل عادتي الغزو والثار وفي منحهما صفة الضرورة لاستمرار الحياة . فالغزو والثار ، على الرغم مما قد يبدو لنا ، نحن اليوم : من قسوة فيهما ، كانا في الظرف التاريخي — الاقتصادي والاجتماعي الخاص بالمجتمع الجاهلي ، مبدأين ضروريين من أجل حفظ القبيلة من الفناء . وكانا في الوقت نفسه السبب في حضور الموت حضورا دائما في حياتها . واذا كان معيار النسب معيارا شاملا يحقق للفرد احتراما وأمنا بين القبيلة ، فان القبيلة نفسها كانت تحتاج الى القوة لتفرض احترامها وامنها بين القبائل . وكان مقياس قوة القبيلة هو عدد رجالها القادرين على حمل السلاح والقتال ، ومبلغ قوتهم الجسدية ، واتقانهم لفنون الحرب واستخدام آلاتها ، واقبالهم عليها . وعن ادراك القبيلة لمقياس قوتها نتج معيار اجتماعي شامل في مفهوم « البطولي » ، بالاضافة الى معيار النسب ، هو معيار القوة والشجاعة لقد جاءت هاتين الصفتين لصورة الفارس في الشعر الجاهلي تعبيرا عن

هذا المعيار الاجتماعي الشامل . ان مفهوم « البطولي » المتجسد في الشعر الجاهلي في صورة الفارس ، يقترن دائما بالقوة . فالفارس العربي يتمتع بقوة عظيمة وصلابة عود تمكنه من خوض المعارك والصبر على اهوالها وتوجيه الضربات القاتلة حتما الى صدور الاعداء الكثيري العدد دائما ، والاستيلاء على قطعان ماشيتهم وسبي نسائهم . وتمكنه ايضا من الدفاع عن قبيلته ودحر الغزاة وقتلهم .

غير أن قوة الفارس لا تتحقق بضخامة الجسم وعظم الاعضاء ، فضخامة الجسم صفة تتعارض ونمط حياة القبيلة المتنقلة ، كما انها تتعارض واساوب قتال الفرسان في الكر والفر . ان قوة الفارس تنبع من مصادر معنوية اما جسده فناحل لكثرة ما يخوض من المعارك دفاعا عن القبيلة او انتصارا لها في غزوها لمضارب الاعداء . ولا يخفي الشاعر هذه السمة لانه لا يرى فيها ما يوحي بضعفه :

ولو اني كشفت الدرع عني رايت وراءه رسما محيلا (١١)

ويشرح أسباب نحوله بقوله :

اما تريني قد نحلت ومن يكن غرضا لاطراف الاسنة ينحل (١٢)

ويؤكد عمرو بن معد يكرب الزبيدي هذه الفكرة فيقول :

اعاذل انما افنى شبابي اجابتي الصريخ الى المنادي
مع الفتيان حتى سلّ جسمي واقرح عاتقي حمل النجاد(١٣)

وثمة حادثة طريفة تروى عن هذا الذي « اقرح عاتقه حمل النجاد » لا باس من ذكرها الان . فقد ذكر صاحب كتاب « الفروسية في العصر الجاهلي » ان عمر بن الخطاب سال يوما : اي سيوف العرب امضى ؟ فقيل له : صمصامة عمرو بن معد يكرب الزبيدي . فبعث عمر الى عمرو أن يرسل اليه بسيفه فبعث به اليه . فلما ضرب به وجده دون ما كان

بلغه عنه. فكتب اليه في ذلك . فرد عليه عمرو : أني انما بعثت الى امير المؤمنين بالسيف ولم أبعث اليه بالساعد الذي يضرب به ...!!(١٤) .

ومهما تكن درجة صحة هذه الرواية فانها تنسجم تماما وقوة الضربات التي يوجهها الفرسان الى خصومهم كما صورها الشعر العربي الجاهلي . ولكنها تدفعنا الى التساؤل عن سر قوة ساعد هذا الفارس الذي « سل جسمه واقرح عاتقه حمل النجاد » . فثمة تناقض بين قوة الفارس وشجاعته وبين ضعف جسمه ونحوله .

لقد تجلى « البطولي » في الشعر الملحمي اليوناني بصورة الفارس المتمتع بصفات البطولة كلها ، بصورة البطل القوي الكامل ذي البنية الجسدية التامة ، الذي لا يفقد ، حتى في العذاب ، توازنه الهارموني وقوته الجميلة . ان بطل العصر اليوناني القديم يؤكد نفسه في العالم كائنا قويا كاملا مظفرا ، اما صورة البطل التي تتجلى في الشعر الملحمي ـ الغنائي العربي فكلها تناقضات درامية . ومهما كانت الاشكال التي تجسدت بها درامية صورة الفارس في الشعر العربي القديم غريبة ومثيرة للتساؤل ، فانها تعبر عن تناقضات الواقع الحقيقية . فالفارس الذي يذيق اعداءه الموت بضرباته القوية ، يعاني ، في الوقت نفسه ، احساسا حادا بالموت وايمانا بقربه وحتمية قدومه ما دام يعيش في ارض هي :

ارض توارثها شعوب فكل من حلها محروب
اما قتيلا واما هالكا والشيب شين لمن يشيب(١٥)

ففي مجتمع يقوم على الغزو والثأر لا بد للمرء من توقع الفجيعة في نفسه وفي احبائه مع كل غزوة يقوم بها رجال قبيلته او كل غزوة يتعرضون لها . وقد تجلى هذا التوقع الجماعي الدائم للموت في الشعر الجاهلي كله ، فلا يكاد يخلو منه ديوان شاعر . واقترن ذلك التجلي دائما بحزن وتفجع واضحين عمقهما يأس العرب الجاهليين من امكان تغيير الظروف التي جعلت الموت قريبا الى هذا الحد .

لقد اطمأن عقل العربي الجاهلي الى حتمية الموت وأدرك عبثية الفرار من هذه الحتمية ، كما آمن بأن الموت قوي يغلب كل من يغالبه فلا تنجي منه التعويذات وقوة السحر .

لعمرك والمنايا غالبات وما تغني التميمات الحماما(١٦)

ولا ينجي منه اي حذر او خوف ، فالمرء اذا اودى :

اودى فلا تنفع الاشاحة منه امر لمن قد يحاول البدعا(١٧)

وهو قريب جدا من كل انسان ف :

قل للذي اضحى به شامتا انك والموت معا في شعار
هون وجدي ان من سره مصرعه لاحقه لاثمار
وانما بينهما روحة في اثر غاد سار جد النهار(١٨)

وهو سريع في الوصول الى الناس ، وقاس لا يفرق بين ضحاياه :

لا ارى الموت يسبق الموت شيئا نغص الموت ذا الغنى والفقيرا(١٩) .

والاحساس بالموت يتصاعد ويبلغ درجة كبيرة من التوتر لدى الانسان الجاهلي حين يقتل اقرباؤه من فرسان القبيلة التي ينتمي اليها ، بل ان موتهم يغدو في نظره انذارا له بالموت .

والجاهلي يؤمن بأن القتل الذي يكون نصيب بعض القبيلة يمكن ان يكون مصير من تبقى منها :

وانا قد قتلنا من علمتم ولستم بعد في قف حصين(٢٠)

انه الموت الذي لا فرار منه ، الموت الذي يطارد الجاهلي في حله

وترحاله ، ويلاحقه غازيا او ضحية غزو ، آخذا بثأر او مأخوذا به .
ومن الملفت للنظر ان الموت الذي اكثر الشعر الجاهلي من تصويره ليس الموت بسبب الهرم والمرض ؛ بل الموت الذي يصرع الانسان وهو في أوج قوته وشبابه ، يصرعه لا لانه ارتكب اثما ما بحق الآلهة ، كما هي الحال في الشعر الملحمي اليوناني ، وانما لان ذلك منطق الحياة التي كان البدوي الجاهلي يحياها . وهذا ما جعل الوعي الفني العربي الجاهلي يقرّ بالموت قتلا واقعا ثابتا مطردا . فعنترة يعبر عن ذلك بقوله :

بكرت تخوفني الحتوف كانني — اصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فاجبتها ان المنية منهل — لا بد ان اسقى بكاس المنهل
فاقني حياءك لا ابالك واعلمي — اني امرؤ ساموت ان لم اقتل(٢٢)

ويكرر ذلك طرفة الذي يصور الانسان مربوطا الى الموت يجذبه متى شاء فيقول :

الا ايها ذا الزاجري احضر الوغى — وان اشهد اللذات هل انت مخلدي ؟
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي — فدعني ابادرها بما ملكت يدي(٢٣)

ولأن الموت قتلا لا يكون الا في المعارك فقد انقلب القتل من قيمة قبيحة تثير التفجع والحزن ، الى قيمة سامية تعبر عن قدرة القبيلة على خوض معارك الثأر والغزو وصد الغزوات ، في حين يدل طول العمر على القعود عن خوض هذه المعارك الضرورية للبدوي من اجل تأمين متطلبات حياة القبيلة وامنها .

وانا لقوم ما نرى القتل سبة — اذا ما راته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا — وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف انفه — ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا — وليست على غير الظبات تسيل(٢٤)

ولعل هذا الفهم للعلاقة بين القتل والحياة هو الاساس في معيار الشجاعة والقوة . فالفارس البطل ، كما يصوره لنا الوعي الفني الجماعي في الشعر الجاهلي ، لا يقتل حبا في القتل بل هربا من الموت وطلبا للحياة . شجاعته ليست شجاعة من يهوى المغامرات ويحب اختراق المجهول ، أو يحارب القوى الخفية أو يقاتل بأمر منها ، بل شجاعة المدافع عن النفس او القبيلة ضد غزو ، أو المهاجم لخصم او قبيلة طلبا لثأر أو غنيمة . وقوته ليست قوة مستمدة من الآلهة أو امتياز في تكوينه الجسدي ، بل من ادراكه انه اما قاتل واما مقتول في هذا الصراع المرير القاسي من اجل الحياة . وفي هذا اختلاف واضح بين مفهوم « البطولي » في المجتمع العبودي اليوناني ومفهوم « البطولي » عند العرب الجاهليين . وهو اختلاف أملاه التناقض المأساوي بين الانسان وظروف الحياة الطبيعية والاجتماعية المحيطة به في المجتمع العربي الجاهلي ، فجعل الفارس العربي يركب المخاطر في سبيل تأمين حياته . وثمة شعر جاهلي كثير صور تجلي القوة والشجاعة بوصفهما رد فعل ضروريا على الخطر الداهم . فالفارس العربي :

اخو الحرب ان عضت به الحرب عضها

وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا(٢٥)

ولذا فان قوة عنترة وشجاعته لا تتجليان الا حين يلتجىء الناس اليه ويحتمون به ويطلبون نجدته :

لما رايت القوم اقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم

يدعون عنتر والرماح كانها أشطان بئر في لبان الادهم(٢٦)

وكذلك هي الحال بالنسبة الى طرفة بن العبد الذي يلبى النداء اذا دعي الى خوض المعركة :

وان ادع للجلى اكن في حماتها

وان تاتك الأعداء بالجهد اجهد

وان يقذفوا بالقذع عرضك اسقهم
بشرب حياض الموت قبل التهدد(٢٧)

وتكاد الصورة نفسها تتكرر في شعر عروة بن الورد :

اذا قيل : يابن الورد اقدم الى الوغى
اجبت فلاقاني كميّ مقارع
بكفي من المأثور كالملح لونه
حديث باخلاص الذكورة قاطع(٢٨)

لقد كان الاقدام على خوض المعارك وقتل الاعداء ضرورة من ضرورات الحياة . وكان الجبن والتقاعس عن ذلك اشنع العيوب التي يمكن أن يوصف بها البدوي . فاتهام البدوي الجاهلي بالجبن اهانة لا يغسلها الا الدم . وليس أقبح من الجبان الذي يلزم زوجه فلا يغادر خيمتها ولا يرجى منه كرم ضيافة او ثبات في ساح القتال . وهذا ما يجعل الشنفرى يعيز نفسه من هذا النوع من الناس فيقول :

ولست بمهياف يعشي سوامه
مجدعة سقبانها وهي نهل
ولا جبأ اكهى مرب بعرسه
يطالعها في شانه كيف يفعل
ولا خرق هيق كان فؤاده
يظل به المكاء يعلو ويسفل
ولا خالف دارية متغزل
يروح ويغدو داهنا يتكحل
ولست بكل شرّه دون خيره
الفّ ، اذا ما رعته اهتاج ، أعزل(٢٩)

فاذا جمعنا الى ضرورة القوة والشجاعة ما سبق ان ذكرناه عن تقديس العرب الجاهليين للكلمة واعتقادهم بانها تمتلك قوة حقيقية على التأثير ، ندرك مبالغة الشعر الجاهلي مبالغة عظيمة في تصوير مظاهر القوة والشجاعة عند الابطال . فالهدف من هذا التصوير ليس وصف اعمال الفارس البطولية فحسب ، بل ان من اهدافه ايضا بث الرعب في قلوب الاعداء وشحذ همم فرسان القبيلة او الجماعة وتوطيد امنها وسلامتها .

ونحن نكاد نجزم بان هـذه الاهداف الجماعية هي جوهـر صورة الفارس البطل في الوعي الفني المتجلي في شعر العرب الجاهليين . فليس ثمة تباين يذكر في ميدان القوة والشجاعة بين صور الفرسان والمعارك التي يرسمها لنا الشعراء ، بل ان هذه الصور تكاد تتطابق حتى في المفردات اللغوية المستخدمة فيها . لقد سبق ان ذكرنا ان الشعر العربي الجاهلي شعر ملحمي غنائي شفوي . ومن خصائص الشعر الملحمي الشفوي المبالغة والتكرار واستخدام اساليب تصوير محددة — على تنوعها — تحديدا صارما . ولقد تجلت هذه الخصائص بوضوح في تصوير المعارك في الشعر الجاهلي ، فسلاح الفارس شديد المضاء ، وضربته عاجلة قاتلة ، وهو يرغم فرسه على الثبات واقتحام صفوف الاعداء . اما خصمه فقوي عنيد يثير منظره الرهبة في النفوس ، ولكنه يسقط معفرا بالتراب أثر طعنة رمح أو ضربة سيف يوجهها اليه الفرس البطـل فيتركه بعدها طعاما لوحوش الصحراء وطيورها الجوارح . ولتوضيح ما نعنيه بالمبالغة والتكرار واستخدام اساليب تصوير محددة نورد فيما يلي نماذج يمكن لقارىء الشعر الجاهلي ان يجد الكثير منها فيه

يقول عنترة :

ومدجج كـره الكمـاة نزالـــه ... لا ممعـن هـربـا ولا مستسلم
جادت لـه كفي بعاجـل طعنـة ... بمثقف صـدق الكعوب مقوم(٣٠)

ويقول في مكان آخر :

كم فارس بين الصفوف أخذته والخيل تعثر بالقنا المتكسر
كم فارس غادرت يأكل لحمه ضاري الذئاب وكاسرات الأنسر(٣١)

ويصور لنا طرفة بن العبد فعال فرسان قبيلته يوم تحلاق اللمم فيقول :

حين يحمي الناس نحمي سر بنا واضحي الأوجه معروفي الكرم
بحسامات تراها رسبا في الضريبات مترات العصم
نمسك الخيل على مكروهها حين لايمسك الا ذو كرم
نذر الابطال صرعى بينها تعكف العقبان فيها والرخم(٣٢)

ويقول قيس بن الخطيم في وصفه لقوته وشجاعته :

طعنت بن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع اضاءها
ملكت بها كفي فانهدت فتقها يرى قائما من خلفها ما وراءها
واني في الحرب الضروس موكل باقدام نفس ما اريد بقاءها (٣٣)

أما عروة بن الورد فينبئنا انه :

اذا قيل :يابن الورد اقدم الى الوغى اجبت فلاقاني كمي مقارع
بكفي من المأثور كالملح لونه حديث باخلاص الذكورة قاطع
فاتركه بالقاع رهنا ببلدة تعاوره فيها الضباع الخوامع
فلا أنا مما جرت الحرب مشتك ولا انا مما احدث الدهر جازع(٣٤)

ان هذه النماذج تدل بوضوح على ان الشاعر لم يكن يسعى في

تصويره للفعل البطولي الى تجسيد تجربته الفردية ، بل الى تجسيد الصورة المثالية للبطولة كما ارتسمت في الوعي الجمالي الجماعي . ولذا لايجدر بنا عند تقويم الصورة التي قدمها الشاعر ان نبحث في صدقها او كذبها ، أو ننتقد مافيها من مبالغة في وصف فعال البطل في المعركة، فمهمة الشاعر الاساسية كانت تتطلب منه المبالغة ليتمكن من تقديم وصف للفعل البطولي متفوق في قدرته التعبيرية . وهذا التفوق هو وحده مقياس نجاح الشاعر او اخفاقه .

يميل بعض الدراسات التي تناولت العصر الجاهلي الى تصوير حياة البدو حياة طليقة من كل قيد ، فيخلق ذلك عند القارىء انطباعا مغلوطا عن الحياة القبلية يتصور من خلاله ان الجاهليين كانوا يعيشون حياة تسودها الفوضى التي لايحدها نظام أو قانون . غير ان الحياة القبلية لم تكن كذلك ابدا . فخضوع البدوي الفرد للاعراف القبلية كان خضوعا صارما وشديدا وطوعيا . اما عقوبة من يخالف تلك الاعراف فالطرد الذي يجعله عرضة لمخاطر لاقبل للانسان الفرد بمجابهتها.

لقد كان الالتزام الجماعي بالاعراف القبلية اساس نظام الحياة الجاهلية الذي تمخض عنه مفهوم سياسي للسلطة يوجب على كل فرد من افراد القبيلة الاشتراك في اتخاذ القرارات وتنفيذها . وقد رسخ هذا المفهوم في وجدان البدوي عداء ثابتا لتركيز السلطة في يد حاكم فرد ، وشعورا عميقا بالمساواة بينه وبين سائر افراد القبيلة التي ينتمي اليها.

غير ان بلوغ المجتمع الجاهلي مرحلة الانتقال من البداوة الى الاستقرار وبناء والدولة ، وهو أمر أشرنا اليه سابقا ، خلق مجموعات متفاوته في المكانة الاجتماعية وعراقة النسب حتى في قلب القبيلة الواحدة . فالقبيلة التي كانت تتألف من افراد متساوين في الحقوق والواجبات، باتت تتألف من صرحاء النسب والحلفاء والجيران والموالي والشركاء المستلحقين بالنسب ـ وهؤلاء جميعا احرار ولكنهم متفاوتون من حيث

المكانة الاجتماعية والجاه ـ تضم القبيلة ، بالاضافة اليهم ، الإماء والعبيد المحرومين من الحقوق كلها .

ومن يتأمل الحياة الاجتماعية الجاهلية في هذه المرحلة يرى تناقضا صريحا بين ظاهر التقاليد القبلية المتسم بالمساواة بين جميع افراد القبيلة في الحقوق والواجبات وبين الحياة الفعلية للقبيلة ، تلك الحياة القائمة على التمايز في الفقر والغنى ، والوفرة والحرمان ، وعلى تجميع السلطة والنفوذ في ايدي الاثرياء على حساب الفقراء والمحرومين. لقد ادى تخلي القبيلة عن مبدأ المساواة بين افرادها ، ولجوءها الى التمييز بين هؤلاء الافراد الى اختلال وحدتها وتقسيمها ، في نهاية المطاف، الى فئة قليلة تتمتع بالثراء والنفوذ وفئة واسعة من الفقراء المعدمين الذين لايملكون شيئا من حطام الدنيا . كما ادى نشوء المدن والنشاط التجاري الى توسيع الهوة بين الاغنياء والفقراء بسبب تنمية الاغنياء لثرائهم عن طريق التجارة والربا . فكان من نتائج ذلك كله انعدام التدرج الاجتماعي بين الفقر والغنى وحلول الفقر بساح فئة كبرى من افراد القبيلة ، كانت على الرغم من كثرة عددها ، في المرتبة الثانية دائما ، وكانت ذليلة لاتملك من امرها شيئا ولاتحظى الا بازدراء الطائفة المترفة الثرية . وقد انعكس هذا التناقض بين ماتعنيه التقاليد القبلية وبين الممارسة الفعلية للحياة في القبيلة في سلوك فقراء العرب تذمرا من فقرهم وهوانهم ، وتمردا على واقعهم ، ومحاولات لتجاوزه ، كانت ظاهرة التصعلك ، في بعض جوانبها ، واحدة منها .

ان ادراك الجاهلي الفقير لذاته بوصفها ذاتا مساوية لذوات الآخرين من افراد قبيلته ، كان يصطدم بواقع فقره وحرمانه واضطهاد الاثرياء له ، فيدفعه ذلك الى التمرد ، او الرغبة في التمرد ، انطلاقا من تصور مجتمع ينتفي فيه الظلم وسيطرة القوي بالمال والنسب على الضعيف الفقير . وهذا ، في رأينا جوهر معيار اجتماعي شامل آخر في تقويم الظاهرة البطولية ، هو اباء الذل والتمرد على الظلم . ان مفهوم « البطولي » المتجسد في الشعر الجاهلي بصورة الفارس يقترن دائما

باباء الذل والتمرد على الظلم ، معبرا من خلال ذلك الاقتران عن شعبية هذا الشعر وتحزبه تحزبا فطريا للفقراء . و « البطولي » في الشعر الجاهلي يختلف بذلك عن « البطولي » في الشعر اليوناني القديم . فالشعر اليوناني القديم جسد « البطولي » بصورة نصف الاله او الملك او القائد المنفذ لارادة الآلهة او القدر . ان البطل اليوناني لم يكن يفكر مطلقا بالتمرد على النظام الاجتماعي العبودي القائم على انعدام المساواة بين العبيد ومالكيهم ، اذ لم يكن الصراع الذي يخوضه صراعا بينه وبين المجتمع ، بل كان صراعا بينه وبين القوى التي تحاول الاخلال بالنظام الاجتماعي ونواميس المجتمع . لذا كانت صورة البطل في الشعر اليوناني القديم منسجمة تماما والاساس الاجتماعي للفن اليوناني الذي كان، على الرغم من انسانيته الشاملة ، فنا لمالكي العبيد . اما البطل في الشعر الجاهلي فمتمرد على النظام الاجتماعي القائم على انعدام المساواة ينسجم تمرده والاساس الاجتماعي لذلك الشعر الذي نشأ في مجتمع لم يعرف العبودية نظاما اجتماعيا مستقرا .

ان شعبية الفارس العربي المصور في الشعر الجاهلي ، وتحزبه الفطري للفقراء ، هما سر نضارة صورته ورسوخها في وعي العرب وسمو مكانتها في نفوسهم عبر العصور اذا ماقورنت بصورة الفروسية التي اصطنعها ، فيما بعد ، الشعراء المداحون للملوك والامراء ، والاثرياء، على الرغم من ان الشعراء المداحين استخدموا اللغة العربية نفسها ، وحاولوا اتباع الاساليب التصويرية عينها التي كان الشعراء الجاهليون يستخدمونها .

ونحن ، اذ نطرح هذا الراي ، ندرك ان اغلب الدراسات التي تناولت الحياة العربية الجاهلية والادب الجاهلي ، حاول برومانتيكية ساذجة يطمس هذا التحزب في مفهوم « البطولي » ، فزعم بأن الاباء والتمرد على الظلم كانا صفتين تحلى بهما العرب الجاهليون جميعا، ونعرف ان هذه الدراسات عزت ذلك الى طبيعة الحياة القبلية وكان هذه ظلت

على حالها البدائية منذ نشوئها حتى ظهور الاسلام . ان منطق الامور نفسه يدحض مثل هذا الزعم الساذج . فلكي يصارع المرء الظلم لابد من وجود من يسعى لاذلاله . ولا يكون صراع الظلم وإباء الذل من الاعمال البطولية مالم يوجد من يخضع للظلم والاذلال . ان البطولة تفرد وامتياز ، فبماذا تتفرد فعال الفارس المثال لو صح زعم القائلين بأن الاباء والتمرد على الظلم كانا صفتين تحلى بهما العرب الجاهليون جميعا ؟ أضف الى ماتقدم ان مايتطلبه الاباء والتمرد على الظلم من ثمن باهظ في مجتمع قائم على العرف القبلي كان يقهر أفراده ويطرد من يخرج على أعرافه ، أمر لايستطيعه كل من يتمناه . ولا بد لمن يقدم عليه من امتلاك القوة الكافية لمواجهة ظالميه بكل مالديهم من نفوذ وثراء وقوة. وهذا ما لم يتحقق للقسم الاعظم من المظلومين في المجتمع الجاهلي الذين كان بعضهم يسأل الموسرين احسانا ، وبعضهم يتحامل على نفسه تكرما وتعففا ، أو يختار الموت على حياة الذل ، أو يضطر لقتل أولاده من املاق أو خشية املاق . ان الذين تمردوا على الظلم وقاوموه لم يكونوا الا نفرا قليلا من هؤلاء المقهورين ، فكان سلوك هذا النفر القليل تعبيرا عن رغبات مجموع الفقراء وأمانيهم ، وانعكس في الوعي الجمالي الجماعي في صورة الفارس الابي المتمرد على الظلم .

والناظر في الشعر الجاهلي ترتسم أمامه نماذج من التمرد على الظلم ، منها ما يعبر عن نقمة الفرد وتمرده حين يستشعر مهانة أو يهضم له حق ، ومنها ما يعبر عن نقمة الفرد وتمرده على النظام الاجتماعي حين يدرك اختلاله والظلم الذي يلحقه هذا الاختلال بالفقراء والمستضعفين. فالتمرد على الظلم يتجسد ، على سبيل المثال ، في شعر عمرو بن كلثوم الذي يأبى ان يرضى الذل فيقول :

اذا ما الملك سام الناس خسفا   أبينا ان نقر الذل فينا(٣٥)

وفى شعر عنترة الذى يخاطب عبلة قائلا :

اثني عليّ بما علمت فانني ... سمح مخالقتي اذا لم اظلم
فاذا ظلمت فان ظلمي باسل ... مر مذاقته كطعم العلقم(٣٦)

ويبدو الدافع الى التمرد على الظلم واحدا في الحالتين هو معاملة الفارس معاملة فيها استهانة به واستعلاء عليه . ومع ذلك ، فاننا في حالة ابن كلثوم امام تمرد الفارس على محاولة الملك عمرو بن هند ممارسة السلطان الذي يمنحه اياه صولجان الملك . ولذا فنحن لا نجد في معلقته ما يعبر عن تمرد على التقاليد القبلية نفسها او على القيم الاجتماعية في الحياة الجاهلية . اما في حالة الفارس في شعر عنترة ، الذي لقي صنوفا من العذاب والاهانة من جراء سواده لم ينفع في تخفيفها الحاقة بنسب ابيه ، اذ ظل في عيون الناس اسود اللون وابن حبشية سوداء ، فنحن امام ظلم القبيلة كلها ، بل امام ظلم يفرضه مجمل القيم الاجتماعية للحياة الجاهلية على الفارس . ولذا فان تمرده يكون على هذه القيم نفسها ، وعلى ظالميه الذين يقفون منه هذا الموقف اللئيم :

يعيبون لوني بالسواد وانما ... فعالهم بالخبث اسود من جلدي(٣٧)

لقد ادرك الفارس في شعر عنترة ان حصوله على حريته لم يغير مفاهيم المجتمع الذي ظل يظلمه ، فتمرد على تقاليد ذلك المجتمع ودعاه الى تقويم الانسان من خلال فعاله لا من خلال لونه . وراح يذكر ظالميه بانهم يقابلون احسانه بالاساءة :

اذكر قومي ظلمهم لي وبغيهم ... وقلة انصافي على القرب والبعد
بنيت لهم بالسيف مجدا مشيدا ... فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي(٣٨)

وبلغ منه التمرد حدا جعله يفخر بما كان سببا في ازدراء مجتمعه له ، فراح يمجد انتماءه لأم سوداء ويمتدح العرق الحامي ، ضاربا عرض الحائط بكل قيم المجتمع الذي ناضل نضالا مريرا من اجل الانتساب اليه:

وانـا ابن سـوداء الجبين كانهـا ضبع ترعـرع في رسـوم المنـزل
السـاق منها مثل سـاق نعامـة والشعر منهـا مثل حب الفلفـل
والثغـر من تحـت اللثـام كانـه برق تلألأ في الظـلام المسـدل(٣٩)

بل ان عنترة تمرد حتى على قيم مجتمعه الفنية فخلت معلقته من الوقوف على الطلل ، وتضمن مطلعها في بعض معانيه سخرية من هـذا التقليـد الفني الراسخ في الشعر الجاهلي :

هل غادر الشـعراء من متـردم ام هل عرفت الدار بعد توهم ؟(٤٠)

ان الفارس المثال الذي تجسد في شعر عنترة يتمرد على تقاليد القبيلة ويطرح قيما بديلة لتلك التي كانت سببا في اضطهاده وهضـم حقوقـه :

فـان تـك امـي غرابيـة من ابنـاء حـام بهـا عبتنـي
فـاني لطيـف ببيض الظبـا وسمر العـوالي اذا جئتنـي
ولـو لا فـرارك يـوم الوغـى لقدتـك في الحرب او قدتني(٤١)

ولكنه يبقى في اطار انتمائه للقبيلة ويبقى فارسها المجرب المدافع عنهـا :

وانـا المجـرب في المواطـن كلهـا من آل عبس منصبي وفعـالي
منهـم ابي حقـا ، فهم لي والـد والام من حـام فهم اخوالي(٤٢)

غير ان التمرد على الظلم تجلى في مظاهر اخرى بدت اكثر انتصارا للمنطق الفردي والخروج على العصبية واقوى تحديا للتقاليد والاعراف والمعتقدات السائدة . وهذا ما نجده في صورة الفارس المثال المتجسدة في شعر طرفة بن العبـد .

لقد عبر الفارس المتجسد في شعر ابن العبد عن التمرد على الظلم

بطريقة واضحة لا مواربة فيها ، وكان تمرده متجها الى طبيعة الحياة القبلية في جوهرها القائم على الظلم وهضم الحقوق :

مـا تنظرون بحـق وردة فيكـم صغر البنـون ورهط وردة غيب
قد يبعث الأمـر العظيـم صغيره حتى تظـل لـه الدمـاء تصبب
أدوا الحقوق تفر لكـم اعراضكم ان الكريم اذا يحرب يغضب(٤٣)

ان الفارس يحاول من خلال احتجاجه ان يؤكد ذاته ويلزم المجتمع بمنطقه الداعي الى انتقاء الظلم وسيطرة القوي على الضعيف من خلال الالتزام بقيم العصبية القبلية . ولكنه يجد الامر مستحيلا ؛ فينقلب احتجاجه الى رغبة في التحدي مقترنة بالسخرية من التقاليد والاعراف والمعتقدات ، فنراه يجاهر بممارسته للفعال المخالفة لتقاليد العشيرة ويعلن بلهجة تنم على المفاخرة والتصدي انه استمر في سلوكه هذا الى ان تحامته وافردته :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وانفاقي طـريفي ومتلـدي
الى ان تحامتني العشيرة كلهـا وافـرت افراد البعـير المعبـد(٤٤)

ويقوده تصديه في نهاية المطاف الى رفض صريح للالتزام بالعصبية القبلية مادامت هذه العصبية لم تمنع الاقوياء فيها من ظلمه وهضم حقوقه :

وظلم ذوي القربى أشـد مضاضة على المرء من وقع الحسـام المهنـد
فذرني وعرضي انني لـك شاكـر ولوحل بيتي نائيـا عند ضرغـد(٤٥)

انها القطيعة ، اذن ، بين الفرد والقبيلة ، القطيعة التي تعبر عـن موقف أشد تطرفا من موقف عنترة واكثر انسجاما ومنطق الفارس المظلوم الذي اكتشف زيف قيم القبيلة وخداع الداعين الى التمسك بتلك القيم .

غير ان هذا الموقف المستهتر يتنامى في شعر الشنفرى ليصبح تحديا للمجتمع الانساني كله ودعوة الى هجره والانتماء الى وحوش الصحراء :

وفي الارض منأى للكريم عن الاذى — وفيهـا لمـن خاف القلى متحول
لعمركما بالارض ضيق على امرىء — سرى راغبا او راهبـا وهو يعقل

....

ولـي دونكم اهلون سيد عملس — وارقط زهـلول وعرفـاء جيئل
هم الرهط لا مستودع السر ذائع — لديهم ولا الجاني بماجر يخذل(٤٦)

فحين يستحيل التلاؤم مع مجتمع يظلم الفارس ولا يؤمن له الحياة الكريمة يلجأ هذا الفارس الى عالم الوحوش الذي يمتاز من عالم الانسان بان افراده لا يفشون سرا لصاحب ولا يخذلونه . ومن الملفت للنظر ان الفارس يهجر مجتمعه غير آسف عليه ، فليس في هؤلاء البشر الـذيـن يهجرهم مايحزن لفراقه او يحتاج اليه او يشكو الحرمان منه . وهـو يستعيض عنهم بأصحاب ثلاثة حقيقيين يقفون الى جانبه وقت الشدة وهم : قلبه المقدام وسيفه المجرد وقوسه القوية :

واني كفاني فقد من ليس جازيـا — بحسنـى ولا في قـربـه متـعـلـل
ثلاثـة اصحاب : فـؤاد مشيـع — وابيض اصليـت وصفراء عيطـل
هتوف من الملس المتان يزينهـا — رصائع قد نيطـت اليهـا محمـل
اذا زل عنهـا السهم حنـت كأنها — مـرزّأة ثكلـى تـرن وتعـول (٤٧)

والفارس في شعر الشنفرى قوي في تمرده على الظلم وفي انسلاخه عن المجتمع ، فهو ليس « كالبعير المعبد » ، بل كسبع الفـلاة يتطايـر الحصى تحت قدميه اثناء جريه ، ويتكـر فيحدث شررا ، وينهزم الجوع امام ارادته في صون كرامته ، وتلاحقه الحرب كما تلاحقـه الهموم ، ويجاوره الموت فيالفه :

اذا الأمعر الصوان لاقى مناسمي تطاير منه قادح ومفلل
أديم مطال الجوع حتى اميته وأصرف عنه الذكر صفحا فاذهل
واستف ترب الأرض كي لايرى له عليّ من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يلق مشرب يعاش به الا لدي وماكل
ولكن نفسا حرة لاتقيم بي على الذام الا ريثما اتحول (٤٨)

ان هذه الصورة التي تتجلى في شعر الشنفرى لتدل دلالة قاطعة على أن الفارس المتمرد على الظلم والاذلال لا يفكر مطلقا بالعودة الى المجتمع القائم الذي يرى ان العيش فيه أشد قسوة من قسوة الصحراء ووحوشها التي الفها والفته حتى لكانه صيد فيها :

ترود الاراوي الصحم حولي كانها عذارى عليهن الملاء المذيل
ويركدن بالآصال حولي كانني من العصم ادفى ينتحي الكيح اعقل (٤٩)

ويبلغ هذا المعيار الشامل من معايير مفهوم « البطولي » في الوعي الجمالي الجماعي عند العرب الجاهليين بعدا جديدا حين ينقلب من تمرد الفارس على ظلم يلحق به ، الى تمرد لصالح جماعة المحرومين والفقراء ، فتغدو فعاله البطولية انتقاما لهم من ظالميهم ، وتحريضا على التمرد الجماعي على الظلم ، ومشاركة للمحرومين والفقراء في المصير وذلك ماتجلى في الفارس المثال المتجسد في شعر عروة بن الورد .

لقد انكشف زيف المجتمع واضحا للفارس المتجسد في شعر عروة بن الورد ، اذ لم يكن في هذا الفارس ما يعيبه بمقاييس المجتمع نفسه . فهو ليس اسود اللون كالفارس المصور في شعر عنترة ، ولا وضيع النسب . ولكنه كان يدعو الى العدل وانصاف المظلومين ، فكان ذلك سببا في المواجهة بينه وبين مجتمعه . ويصطنع المجتمع شتى الاسباب ليحتقر الفارس ويزدريه ويعزله :

هم عيروني ان امي غريبة — وهل في كريم ماجد ما يعير
وقد عيرني قومي المال حين جمعته — وقد عيروني الفقر ، اذ انا مقتر
وعيرني قومي شبابي ولمتي — متى ما يشأ رهط امرىء يتعير(٥٠)

ويدرك الفارس انه بموقفه المعادي للظلم قد اصبح معزولا عن مجتمعه لا محالة . ولكنه لا يبالي بذلك ، بل يمضي في مواجهة الظلم مؤمنا بأن دفعه يحتاج الى التضحية في سبيل الآخرين :

واني لمدفوع اليّ ولاؤهم — بماوان اذ نمشي واذ نتململ
واني واياكم كذي الام ارهنت — له ماء عينيها تفدي وتحمل
فباتت بحد المرفقين كلاهما — توحوح مما نالها وتولول
تخير من امرين ليسا بغبطة — هو الثكل الا انها قد تجمّل(٥١)

ودفع الظلم ، ومد يد العون الى المحتاجين امر عظيم حقا ، تهون قسوة الموت امام عار العجز عنه :

دعيني اطوف في البلاد لعلني — افيد غنى فيه لذي الحق محمل
اليس عظيما ان تلم ملمة — وليس علينا في الحقوق معول
فان نحن لم نملك دفاعا بحادث — تلم به الايام فالموت اجمل(٥٢)

ولكن الفارس المتجسد في شعر عروة بن الورد لا يكتفي بذلك بل يطالب الآخرين من الفقراء والمحرومين بالتمرد ايضا على الواقع المزري الذي يحيونه ، اذ لا راحة الهم الا ببلوغ الغنى او الموت :

وقلت لقوم في الكنيف تروحوا — عشية بتنا عند ماوان رزح
تنالوا غنى او تبلغوا بنفوسكم — الى مستراح من حمام مبرح
ومن يك مثلي ذا عيال مقترا — من المال ، يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا او يصيب رغيبة — ومبلغ نفس عذرها مثل منجح(٥٣)

(٤)

ان شعبية مفهوم « البطولي » التي تجلت في تمرد الفارس على ظلم يمارسه الاقوياء ، تجلت ، من جهة ثانية ، في جملة من قيم اخلاقية اخرى تحكم في معظمها سلوك الفارس تجاه الفقراء والضعفاء والمحتاجين . وقد كان الكرم في مقدمة هذه القيم . فالكرم ، كالشجاعة واباء الظلم ، صفة تلازم صورة الفارس المثال المتجسد في الشعر الجاهلي . وهي صفة تعبر ، كسابقاتها ، عن شعبية مفهوم « البطولي » الذي ترسخ في الوعي الجمالي الجماعي الجاهلي . وقد لاقت هذه الصفة بدورها ، محاولة رومانتيكية ساذجة لطمس جوهرها الشعبي وتحزبها . فكثيرا ما نجد في الدراسات التي تناولت العصر الجاهلي ، والادب الجاهلي بخاصة ، عبارات تسبغ صفة الكرم على العرب الجاهليين جميعا(٥٤) وسبب ذلك ، طبعا ، هو الخلط بين الواقع الحقيقي وصورته التي تجلت في الفن من ناحية ، وانعدام الحس التاريخي عند أصحاب هذه الدراسات من ناحية أخرى . ان الصورة التي يلح في تكرارها أصحاب الدراسات المعنية هي التالية :

«الجاهليون بداة يعيشون في الصحراء . والصحراء تفرض قسوة بالغة على قاطنيها .

فكثيرا ما تشح السماء ، وتجدب الارض ، ويلوح شبح الفاقة والجوع . عندئذ يتقدم من عنده فضل من غنى او زاد لانقاذ حياة سكان البقاع المجدبة ، فيعظمه هؤلاء ويقدمونه للرئاسة . وهكذا يصبح الكرم عند العرب سجية متأصلة فيهم بعد أن كان قانونا تفرضه طبيعة الصحراء » .

ان هذه الصورة ، مع افتراض حسن نية اصحابها ورغبتهم في تدعيم اعتزازنا بأصولنا القومية ، تبتعد كثيرا عن الواقع . فالمجتمع الجاهلي لم يكن مجتمع مشاعة بدائية . والعصبية القبلية ، كما سبق أن ذكرنا

في هذا البحث ، لم تكن تعني انعدام الملكية الخاصة في القبيلة ، او انعدام الفوارق في الثروة والمكانة الاجتماعية بين افرادها . أضف الى ذلك ، ان الحياة الجاهلية في المدن عرفت العلاقات التجارية والمالية ، كما عرفت مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية العلاقات الزراعية ايضا . ذلك كله يبرز بوضوح ان الحديث عن اقتسام الطعام والثروة في سني القحط والجوع ، او بسبب قسوة ظروف الحياة ليس اكثر واقعية من الحكايات الشعبية التي غلف الخيال الشعبي العربي وقائعها بغلاف كثيف من ابداعه الخصب . بل ان الحكايات الشعبية بكل ما أسبغه عليها الخيال الشعبي من الوان ، اقرب الى الواقع من تلك الصورة الساذجة التي يحاول الدارسون المعنيون اقناعنا بها .

الحكايات الشعبية التي تحدثنا عن كرم كليب وهو اعز العرب واكثرهم مالا ، تروي لنا أيضا انه قتل ناقة الجرمي لانها رعت كلأ في ارض له .

وان ابناء عم طرفة بن العبد ، وهم كرماء العرب ، اغتصبوا مال امه مستغلين ضعفها وصغر سنه .

وان الورد ، والد عروة ، حرم الشاعر الفارس من الثروة ومنحها لاخيه .

وان والد حاتم الطائي ، المثل الأعلى للكرم العربي ، كان رجلا بخيلا وقد هجر حاتما وامه لكرمهما .

ومن الممكن أن نورد عددا لا حصر له من هذه الحكايات التي تدحض زعمهم الساذج وتؤكد التقابل بين فضيلة الكرم ورذيلة البخل في المجتمع العربي القديم .

اما التاريخ فيحدثنا عن حروب وغزوات كثيرة ودامية بين القبائل ، لم يكن هدفها غير نهب الماشية والغلال والمال ، ويحدثنا ان هذه الغزوات والحروب كانت تكثر في سنوات القحط والجوع .

وعن استرقاق الأسير او قتله اذا لم تدفع قبيلته فدية له .

ويحدثنا ايضا عن انتشار الربا في المراكز التجارية ، وعن أعداد كبيرة من الناس دفعها الفقر والجوع الى الخروج على النظام الاجتماعي القبلي واللجوء الى السطو وقطع الطرق للحصول على لقمة العيش . هل تعني هذه الحكايات ومعطيات التاريخ انكار وجود الكرم بوصفه مفهوما اخلاقيا عند العرب الجاهليين وسمة ملازمة لصورة البطل المثال المتجلي في شعرهم ؟ لا ، انها لا تعني ذلك . ولكنها تعني خطأ مبدأين لتفسير هذا المفهوم الاخلاقي . أولهما يبحث عن اصوله في قسوة ظروف الحياة البدائية ، تلك الظروف التي كانت ، في رأينا ، سببا في نشوء العشيرة والقبيلة وفي ظهور العصبية القبلية وعادات الغزو والنهب والثأر بوصفه وسيلة هامة من وسائل الدفاع عن الوجود . وثانيهما يبحث عن اصول الكرم في تبادل المنافع .

ان الكرم ، الذي جسده الوعي الجمالي الجماعي عند العرب الجاهليين صفة ملازمة للفارس العربي المثال ، لا يمكن ان يفسر بأي من هذين المبدأين الخاطئين اللذين ينطلقان من فكر برجوازي ضيق لا يستطيع ان يتصور اقدام الانسان على عطاء لايتوقع بنتيجة نفعا مباشرا لـذاته . فلم يذكر التاريخ ولا الحكايات الشعبية ولا الشعر الجاهلي ان اثرياء العرب وزعوا ثرواتهم على الفقراء والمحتاجين في سنوا تالجوع والقحط ، كما ان معطيات الشعر الجاهلي والتاريخ والحكايات الشعبية كلها تؤكد ان الفارس المثال لم يكن يتوقع اي نفع لقاء كرمه . بل ان الحكايات الشعبية ، التي لونت الحقائق التاريخيـة بغلاف اسطوري زاهـي الألوان ، تكاد تجمع على المصير الفاجع الذي يلقاه الفارس المثـال بسبب كرمـه .

فالفارس المثال الذي تتجسد صورته في شعر طرفة بن العبد ، يظلمه اهله ويأخذون ماله . ولكنه ينفق ما تبقى لديه ، فتفرده العشيرة افراد « البعير المعبد » وهو الذي يقول عن نفسـه :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم ارفد(٥٥)

لم يكن ابناء عمه يتحلون بحد ادنى من كرم الاخلاق فيعطوه حقه . ولم يلق كرمه صدى في نفوسهم فيفخروا به . كما ان الظلم والعقوبة لم يمنعاه عن الكرم .

والفارس المثال المتجلي في شعر عروة بن الورد يكاد يكون في كرمه كالفارس المصور في شعر طرفة بن العبد ، لولا فارق هام وهو ان عروة لم يكن يملك شيئا ينفقه بل كان يطوف في البلاد لعله يفيد « غنى فيه لذي الحق محمل » .

فاذا غنيت فان جاري نيله من نائلي وميسري معهود (٥٦)

لكن كرم الفارس لا يلقى من اهله غير الهزؤ الذي يثير سخطه واحتجاجه :

اني امرؤ عافي انائي شركة وانت امرؤ عافي انائك واحد (٥٧)
اتهزا مني ان سمنت وان ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد

فهل تسمح لنا هاتان الصورتان بتفسير الكرم عند الفارس المثال على أنه انعكاس لصفة فطرية مترسخة في نفوس الجاهليين جميعا بسبب ما فرضته عليهم قسوة الحياة من ضرورات التعاون ، او على انه عطاء اناس يتوقعون من ورائه نفعا لذواتهم ؟

ان بمقدور من يقرأ الشعر الجاهلي قراءة متأنية ان يكتشف عشرات الصور التي يتجلى فيها هذا النوع المتميز من الكرم الذي تجسد في الوعي الجمالي الجماعي عند الجاهليين معيارا شاملا من معايير مفهوم « البطولي » المتجسد في الفارس المثال . فهذا مالك بن الحارث يقول انه لن يتوقف عن مساعدة الناس ولو ذهب ماله ودفن هو نفسه تحت التراب :

فلست بمقصر ماساف مالي ولو عرضت بلبتي الرماح
ومن تقلل حلوبته وينكل عن الاعداء يغبقه القراح

ويلومه اهله فلا يعبأ بذلك :

فلوموا مابدا لكم فاني ساعتبكم اذا انفسح المراح

كما ان الصورة التي رسمها الخيال الشعبي لحاتم الطائي ، المثل الاعلى في الكرم عند العرب ، لاتختلف عن الصور التي ذكرناها . لقد جعل الخيال الشعبي العربي الجاهلي حاتما شخصية شبه اسطورية في كرمها . ولكنه ابرز ايضا النهاية الفاجعة التي حلت به بسبب هذا الكرم . فحاتم ابن امرأة يمانية اشتهر اهلها بالكرم . ولكنها تزوجت رجلا بخيلا . وحين نشأ حاتم كريما كامه ، وراح يدعو ابناء العشيرة الى طعامه باستمرار ، ضج ابو البخيل ، فهجر الزوج والولد تاركا لهما قطيعا صغيراً من الجمال . غير ان هرب الوالد بالثروة لم يغير في سلوك الفتى الكريم شيئا ، اذ ظل يذبح من جماله يوميا ليطعم الفقراء والطراق الى ان نفدت . وتزعم الاسطورة ان حاتما طلب الى امه ، حين اتاه ضيوف وهو لايملك ما يقدمه اليهم ، ان تبيعه الى قبيلة مجاورة مقابل ابل تنحرها لضيوفه . كما تزعم رواية ثانية انه ذبح فرسه العزيزة على قلبه وقدمها لهم طعاما . وثمة روايات كثيرة ، غير هاتين، لاتزال تتناقلها السنة الاجيال المتعاقبة عن كرم حاتم الاسطوري .

ان هذه الصور التي استعرضناها من خلال الشعر الجاهلي والحكاية الشعبية الجاهلية تجسد الكرم من منظور الفقراء . ولذا نجد انها ابرزته شعورا وجدانيا يتعاطف من خلاله الفارس المثال مع الناس المحتاجين والفقراء ، فيسمو بذلك ويمتاز من افراد المجتمع الآخرين الذين كثيرا مايرون في سلوكه شذوذا يستحق عليه اللوم . انه كرم يختلف عن سخاء الملوك والامراء الذي وصفه الشعراء المداحون حتى في العصر الجاهلي نفسه .

لقد ميز الوعي الجمالي عند العرب الجاهليين كرم الفارس من أعطيات الاثرياء والامراء والملوك . وتجلى هذا التمييز في أن نماذج الفرسان في الحكايات التي حفظتها الذاكرة الشعبية ، ونماذجهم التي جسدها الشعر الجاهلي ، لم تكن تنتمي الى فئة الاثرياء والامراء والملوك ، بل كانت ، في أغلب الحالات ، متمردة على سلطان تلك الفئة، رافضة لظلمها . كما تجلى ايضا في الاختلاف بين طريقة التعبير الفني عن كرم الفارس المثال ، وطريقة التعبير الفني المستخدمة في مدح الاثرياء والامراء والملوك . ففي حين نجد الشاعر يعبر عن الكرم،بوصفه معيارا من معايير المفهوم البطولي ، تعبيرا بسيطا مباشرا يقرر من خلاله موقف الفارس المثال من المحتاجين الذين يتعاطف معهم من دون استعلاء ، نراه يعبر عن الكرم الذي يتصف به الامير او الملك بكثير من المبالغة والتعظيم اللذين يضعفان صدق الصورة ، ويوحيان بأن الشاعر لايصور صفة من صفات الممدوح ، بل يحضه على الكرم ويتملقه طمعا في العطاء . وهذا أمر يبدو واضحا من خلال الموازنة بين النماذج الشعرية التي تصف كرم الفرسان وتلك التي تمتدح كرم الملوك والامراء .

يقول عنترة مخاطبا عبلة :

واذا صحوت فما اقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي (٥٨)

ويقول طرفة بن العبد :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد (٥٩)

ويقول عروة بن الورد

امزق جسمي في جسوم كثيرة واحسو قراح الماء والماء بارد (٦٠)

بينما يقول النابغة الذبياني في وصف كرم الملك النعمان :

فما الفرات اذا هب الرياحُ له ترمي اواذيه العبرين بالزبد
يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنجد
وما باجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد(٦١)

وثمة اختلاف آخر بين الصورة التي يرسمها الشعر الجاهلي لكرم الفارس المثال وصورة الكرم الذي يزعمه الشعراء المداحون لمدوحيهم ، يتجلى في اقتران الكرم عند الفرسان بالعفة وهي صفة لايسبغها الشعر الذي يمدح الاثرياء والامراء والملوك على هؤلاء الممدوحين . فعنترة يلح في ابراز عفته الحاحه في تصوير فعاله البطولية، فهو يقول :

يخبرك من شهد الوقيعة انني اغشى الوغى واعف عند المغنم (٦٢)

ويقول ايضا :

فارى مغانم لو اشاء حويتها ويصدني عنها الحيا وتكرمي (٦٣)

ويقدم الشنفرى صورة رائعة لهذه العفة بعد ان يعلمنا انه ابسل الجميع اذا عرضت طريدة :

وان مدت الايدي الى الزادلم اكن باعجلهم اذ اجشع القوم اعجل(٦٤)
وما ذاك الا بسطة عن تفضل عليهم وكان الافضل المتفضل

هكذا يتجسد الكرم معيارا شاملا من معايير « البطولي » عندما يعبر عن احساس حاد بالآخرين يجعل الفارس المثال يفضلهم على نفسه، فيمنحهم ماحصل عليه بقوته ومهارته ، ويتفق عليهم من دون أن يحسب لغده حسابا . ومن الواضح ان هذا النوع المتميز من الكرم الذي تجلى في الوعي الجمالي الجماعي عند العرب الجاهليين ، لم يكن سمة عامة، بل كان من صفات الابطال في صورتهم المثالية التي جسدها الفن .

ان ما وجدناه في تحليلنا للكرم يتكشف لنا ايضا عند تحليلنا لصفات أخرى تحكم سلوك الفارس المثال تجاه الفقراء والمستضعفين ، كحماية الجار والمرأة ، ونصرة الضعيف ، والوفاء بالعهد والامانة وغير ذلك. ولذا فنحن نكتفي بالاشارة الى هذا الامر تجنبا للاطالة والتكرار .

ـ ٥ ـ

لقد سبق أن تكلمنا على تقديس العرب الجاهليين للكلمة وايمانهم بأن لها قوة الفعل وتأثيره . وتكلمنا على العلاقة بين نشأة الشعر والاغاني الشفوية ، ومنها أغاني الحرب . فثمة تصور توحي به الحكايات الشعبية المتوارثة عن حوار شعري يدور بين الفارس وخصمه قبيل الاشتباك في المعركة ، يقوم من خلاله الفارس بالافتخار بشجاعته وابراز جبن خصمه وضعفه وعجزه عن الصمود في المعركة الطاحنة التي ستنشب . فيرد عليه الخصم مستخدما الوزن الشعري نفسه والقافية نفسها ان استطاع . ونحن نعتقد بان قدسية الكلمة عند العرب الجاهليين ، والمساجلات الشعرية القتالية التي حفظت لنا الحكايات الشعبية صورة عنها ، هما اساس معيار شامل آخر من معايير مفهوم البطولي « عندهم ، هو البلاغة وقوة البيان . ويشمل هذا المعيار اتقان الفارس المثال لفن الخطابة وامتلاكه لموهبة نظم الشعر. فصورة البطل المثالي لاتكون كاملة اذا لم يكن ممتلكا اسباب البلاغة والبيان ، قادرا على الخطابة وقرض الشعر . ولذا فقد جمع البطل الملحمي المصور في الشعر الجاهلي بين المعرفة الشاملة بكل دقائق الفن الشعري وبين القدرة على ارتجال الشعر في كل مناسبة او موضوع وجمع الى جانب ذلك ، الحكمة وسداد الراي والقدرة على تقديم النصح والمشورة وحسن التحدث في المجالس .

فليس ، اذن ، من قبيل المصادفة ، أن يكون جميع الفرسان الذين صورهم الشعر الجاهلي والحكايات الشعبية المتوارثة ، شعراء فطاحل بل ان ذلك شرط من شروط فروسيتهم ، ومعيار من معايير مفهوم « البطولي » الذي جسده الوعي الجمالي الجماعي في ذلك العصر .

كما انه ليس من قبيل المصادفة ان يفاخر الفارس المثال بسداد رأيه وحكمته الى جانب مفاخرته بقوته وشجاعته وانتصاراته . فسداد الرأي والحكمة أمر ان لابد منهما لكي تكتمل صورته البطولية .

– ٦ –

لقد استعرضنا في الصفحات السابقة المعايير الاساسية التي استخدمها الوعي الجمالي الجماعي عند العرب الجاهليين ، في تقويم الظاهرة البطولية التي يتوقف اكتمال تجليها او عدمه على مقدار انطباق هذه المقاييس عليها او عدمه . ولاشك في أن ثمة صفات أخرى جسدها الشعر او الحكاية في معرض تصويرهما لهذا البطل او ذاك . ولكنها تبقى صفات فردية تميز البطل المعني من غيره ، ولا يؤثر وجودها أو عدم وجودها في اكتمال تجلي الظاهرة البطولية المتجسدة في الفارس المثال.

وقد رأينا من خلال استعراضنا لمكونات مفهوم « البطولي » عند العرب الجاهليين انه مفهوم جمالي شامل له طبيعته الاجتماعية المعقدة، البعيدة كل البعد عن الحسية الساذجة التي ألصقها الدارسون بالشعر الجاهلي ، معتمدين على دراسة سطحية مبتورة لنصوص هذا الشعر ومدلولاتها .

ورأينا من خلال استعراضنا أيضا شعبية مفهوم « البطولي » المتجسد في الشعر الجاهلي بصورة الفارس المثال ، وهي سمة تميزه من مفهوم « البطولي » عند اليونانيين القدماء ، كما تميزه أيضا من الصورة البطولية

التي رسمها الشعراء المداحون للملوك والامراء في العصر الجاهلي وفي العصور اللاحقة من تطور الادب الرسمي .

وعلى الرغم من ان تتبع تطور مفهوم « البطولي » في الوعي الجمالي عند العرب ليس من مهام هذا البحث ، فنحن نود هنا الاشارة بايجاز الى ان هذا المفهوم فقد في الادب الرسمي طبيعته الشعبية ، فابتعد عن الفهم الجاهلي للظاهرة البطولية . وكانت لهذا الابتعاد أسبابه طبعا، وفي مقدمتها بناء الدولة واستقرار التقسيم الطبقي في المجتمع . لكن الفهم الجاهلي للظاهرة البطولية ظل حيا في ضمير الطبقات الشعبية الفقيرة . وقد وصل الينا عبر الملاحم الشعبية التي نشأت في العصر المملوكي كـ « سيرة عنترة » و « سيرة الزير سالم » و « تغريبة بني هلال » و « سيرة الملك سيف » ، بعد أن اغتنى بمكونات ومعايير جديدة دخلت عليه من الفكر الديني ومن تأثيرات حضارات الشعوب الداخلة في الحضارة العربية الاسلامية .

ان هذه الاشارة الخاطفة الى تطور مفهوم « البطولي » لاتزعم لنفسها الدقة العلمية اللازمة لاعتمادها ، فهي حصيلة نظرة عامة وسريعة اراد الباحث من ذكرها هنا اثارة المسالة لاحلها .

اما حديثنا عن الفهم الجاهلي للظاهرة البطولية فخير خاتمة له هذه الحكاية التي يرويها صاحب الاغاني عن عنترة :

ضم يوما مجلس عنترة بعدما كان قد ابلى ، واعترف به ابوه ، واعتقه . فسابه رجل من بني عبس ، وذكر سواده وامه واخوته . فسبه عنترة وفخر عليه . وكان مما قاله له :* « ان الناس ليترافدون بالطعمة ، فما حضرت انت ولا ابوك ولا جدك رفد الناس قط ، وان الناس ليدعون الى الغارات فيعرفون بتسويمهم ، فما رايتك في خيل مغيرة في اوائل الناس قط ، وان اللبس ليكون بيننا فما حضرت انت ولا ابوك ولا جدك خطة فصل ، وانما انت فقع بقرقر ، واني لاحتضر

البأس ، وأفي المغنم ، واعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يـدي، وأفصل الخطة الصماء ، وأما الشعر فستعلم » .(٦٥) ويقال انه نظم المعلقة في الرد على ذلك العبسي .

←

هوامش

١ - ديوان طرفة بن العبد البكري ، تحقيق مكس سلفسون ، شالون - فرنسا ١٩٠٠ ، ص ٥٦ وما بعدها .

٢ - ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، تحقيق مطاع الطرابيشي ، دمشق - ١٩٧٤ ص ٤٨ - ٤٩ .

٣ - الحسين بن احمد الزوزني ، « شرح المعلقات السبع » ، حلب - ١٩٨٢ ، ص ١٧٢ وما بعد .

٤ - ديوانا عروة والسموأل ، دار صادر - بيروت ، ص ١٩ .

٥ - المصدر نفسه ، ص ٢٩

٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٦

٧ - المصدر نفسه ، ص ٢٧

٨ - ديوان عنترة ، دار صادر - بيروت ، ص ٥٧ .

٩ - المصدر نفسه ، ص ٢٤١

١٠- المصدر نفسه ، ص ٩٢

١١- المصدر نفسه ، ص ١٨٦

١٢- المصدر نفسه ، ص ٦٠

١٣- ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، ص ٩٥

١٤- سيد حنفي ، « الفروسية العربية في العصر الجاهلي » دار المعارف - ١٩٦٠، ص ١٤

١٥- ديوان عبيد بن الابرص ، دار صادر - بيروت ، ص ٢٤

١٦- اشعار الهذليين ، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨٧

١٧- ديوان بشر بن أبي خازم ، تحقيق د. عزت حسن ، ص ١٢٦ .

١٨- ديوان الخنساء ، دار الاندلس - بيروت ، ط ٦ ، ص ٧٣ .

١٩- ديوان عدي بن زيد ، تحقيق محمد عبد الجبار معيبد ، بغداد ، ص ٦٥ .

٢٠- اشعار الهذليين ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

←

٢١ ـ ثمة شعر يتحدث عن الموت هرما ومرضا . انظر ديوان زهير بن أبي سلمى ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ـ ١٩٤٤ ، ص ٢٨٥ وما بعد ، وانظر ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ص ٩٨ وغيرهما .

٢٢ ـ ديوان عنترة ، ص ٥٨ .

٢٣ـ ديوان طرفة بن العبد البكري ، ص ٢٧ ـ ٢٨

٢٤ـ ديوانا عروة والسموال ، ص ٩١

٢٥ـ اشعار الهذليين ، ج ٢ ، ص ٥٥٧

٢٦ـ ديوان عنترة ، ص ٢٩

٢٧ـ ديوان طرفة بن العبد ، ص ٣٤ .

٢٨ـ ديوانا عروة والسموال ، ص ٤٧ .

٢٩ ـ انظر الابيات في «شرح لامية العرب» لابي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري تحقيق د. محمد خير حلواني ، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ، ص ٢٦ وما بعدها .

٣٠ـ ديوان عنترة ، ص ٢٦ .

٣١ـ المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

٣٢ـ ديوان طرفة بن العبد ، ص ١٠٧ ، ١١٠ .

٣٣ـ ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق د. ناصر الدين الاسد ، ص ٧ـ ٨ ، ١٠ .

٣٤ـ ديوانا عروة والسموأل ، ص ٤٧

٣٥ـ الحسين بن أحمد الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص ١٩٠ .

٣٦ـ ديوان عنترة ، ص ٢٣

٣٧ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٩

٣٨ـ المصدر نفسه ، ص ١٣٩

٣٩ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٨

٤٠ـ المصدر نفسه ، ص ١٥

٤١ـ المصدر نفسه ، ص ٣٦

←

٤٢- المصدر نفسه ، ص ١٩١
٤٣- ديوان طرفة بن العبد ، ص ١٠٢ - ١٠٣
٤٤- المصدر نفسه ، ص ٢٧
٤٥- المصدر نفسه ، ص ٣٦
٤٦- شرح لامية العرب للعكبري ، ص ١٧ - ١٩
٤٧- المصدر نفسه ، ص ٢٤ - ٢٦
٤٨- المصدر نفسه ، ص ٣٠ - ٣٤
٤٩- المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣
٥٠- ديوانا عروة والسموال ، ص ٤٠
٥١- ديوانا عروة والسموال ، ص ٥٧ - ٥٨
٥٢- المصدر نفسه ، ص ٦٢
٥٣- المصدر نفسه ، ص ٢٣
٥٤- انظر ، مثلا ، عمر الدسوقي ، « الفتوة عند العرب » ، ص ٥٩ وما بعدها .
٥٥- ديوان طرفة بن العبد ، ص ٢٤
٥٦- ديوانا عروة والسموال ، ص ٢٧
٥٧- المصدر نفسه ، ص ٢٩
٥٨ - ديوان عنترة ، ص ٢٤
٥٩- ديوان طرفة بن العبد ، ص ٢٤
٦٠- ديوانا عروة والسموال ، ص ٢٩
٦١- ديوان النابغة الذبياني ، دار صادر - بيروت ، ص ٣٦
٦٢- ديوان عنترة ، ص ٤٥ .
٦٤- « شرح لامية العرب للعكبري » ، ص ٢٢ - ٢٣
٦٥- الاغاني ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

باريس باسترناك:
طريق لاكتشاف العالم

د. أيمن أبو الشعر

ولد باريس باسترناك عام ١٨٨٠ في ضاحية بيريديلكينا (١) قرب موسكو ، وكان والده (ليونيد) اكاديميا في مجال الفنون التشكيلية ، وقد ترعرع في اسرة محبة للفن والثقافة ، واولع منذ فتوته بالفن حيث مارس الرسم منذ الطفولة ومن ثم الموسيقا ، الا انه غادرها بعد عام ١٩٠٩ الى المجال الفلسفي والتاريخي في جامعة موسكو ، ولا يلبث بعد سنوات ـ ١٩١٢ ـ ان يسافر الى المانيا لتوطيد معارفه .

يبدا باسترناك بالنشر منذ عام ١٩١٣ وتصدر اولى مجموعاته (توأمان في السحاب) عام ١٩١٤ وتبدو في نتاجاته الاولى تأثيرات من معاصريه وخاصة بلوك .. الا ان ماياكوفسكي كان دوما الاقرب اليه فنيا خاصة من حيث بنية الصورة والتي يركز عليها باسترناك حتى تغدو ذات سمات خاصة لديه . ورغم ان باسترناك يعد في تلك الفترة من المستقبليين الا انه لم ينسجم مع اطروحات معاداة السلف بل على العكس بدت في قصائدة كثيرا من معطيات الشعر الروسي الفلسفي الكلاسيكي الوجداني للقرن التاسع العشر .. ويتابع باسترناك تعميق خصائصه الاسلوبية بالنسبة للصورة الاستعاريه والموسيقا .. ولعل ريلكه (الشاعر الالماني) هو من اقرب الشعراء الاوربيين الى البنية الفنية عند باسترناك .

وشخصية باسترناك ذاتها لها طبيعتها المتميزة فهو اقرب الى الانطوائية وله طريقته الخاصة المفاجئة في الحديث والنطق (مد الحروف) مولع بالتكثيف المعمق كالومض الذي قد يصعب التقاطه مباشرة لكنه يترك تأثيره لفترة طويلة من الزمن (٢) ويبدو ان هناك علاقة خفية بين المكون النفسي للشاعر وملامحه الفنية ، وقد اظهرت اعماله الشعرية منذ خطواته الاولى موهبة خاصة في البناء المتميز للتعبير الشعري . ولا بد للقارىء من التمهل والحذر حتى يستطيع التعود على شعره الذي كان مليئا بالاستعارات والمجاز والتشبيه عنده مأخوذ من عالمه الداخلي في معظم الاحيان وملتقط من زاوية غير متوقعة وكثيرا ما يندفع القارىء الى الحيرة والارتباك في الانقطاعات المفاجئة مما جعله صعبا على القراءة والفهم (وكأنما كان باسترناك في قصائده المبكرة مستعجلا بحيث لم يرصد تيار الظواهر والرؤى مما يدفعه الى هذه الانقطاعات المتعجلة ويفقدها روابطها المنطقية تاركا للقارىء التخمين) (٣) وقد يتعامل مع اللغة ذاتها على اساس مغاير للتسلسل القواعدي وكانه يتحدث عن شيء مدرك اساسا من القارىء اذ يلجأ الى تجاوز التسمية او الاشارة الى المادة المعتمدة بحيث يختفي المبتدأ

او المسند تماما كما في قصيدته (ذكرى ديمون) اذ يستخدم فيها بطل احدى بوئيمات ليرمونتوف دون اي اشارة اليه حتى من خلال الضمير ، كما سعى دائما الى الغوص نحو اعماق التأثير الوجداني بحثا عن فطرية مطلقة او لمحاولة جس جذور الحالة الشاعرية ومن هنا يبدو وكأنه يفتح الطريق امام القارىء ثم يتركه باحثا امام اللا نهاية وامام ذاته تقول تسفيتايفا عن هذه الخاصية لدى باسترناك (.. باسترناك لاينضب حتى ان اي شيء في يده يتحد معها ويمضي من يده نحواللانهاية، باسترناك مجرد دعوة لطريق ، حيث يكتشف الانسان فيه نفسه والعالم ..) (٤)

والواقع ان عالم الصورة عند باسترناك غير مسور حتى بالتعابير النقدية التي حاولت النفاذ اليه ، واذا كان ثمة ضياع للخيوط العامة في اللوحة الشمولية للعمل فذلك لان باسترناك نفسه يتنقل عبرالمواضيع ويخشى أن يأسره موضوع واحد وللاقتراب من صور باسترناك لابد من المرور عبر جسور الحالة الشاعرية ، عبر تلك الخطوات الحساسة الاولى عندها يدرك المرء فقط مدى الموهبة في تخلق عالم الصورة (الجزئية) التي يختفي خلفها فنان ماهر يحاول محاورة الاشياء بمنطق جديدتماما، فالصورة تتوالد من عمق الحالة وليس رسما لها كما ان هذه الحالة تملك خصوصيتها التعبيرية وغالبا ماتجافي المتعارف عليه في مثيلها فاحساسه بالهواء الساخن في غابة صنوبر يولد لديه هذه اللقطة المدهشة (كانت الغابة مفعمة بالتألق المكدود كما لو انها تحت ملاقط الساعاتي) ولعلنا نستطيع ان نلحق طبيعة التصوير لديه في تلك المرحلة (وحتى الثلاثينات) بالانطباعية ، اما تلاحق الصور وتنقلهامن عوالم الى اخرى فهو انتقال غير مشروط لكنه من النوع الذي يخترق ذاته نحو نقيضه احيانا محافظا على صدمات الانتقال ذاتها كطقات واصلة أو كما يقول فيكتور شكلوفسكي (تندفع الصور ولاتستطيع ان تستقر كالنوابض الفولاذية تغير بعضها على بعض مثل عربات قطار أوقف سيره على حين غره ..) (٥) فالرؤى الداخلية عن العالم الموضوعي

هي مخبر باسترناك الفني ولـذا نراه لايقيم وزنـا لعـلاقات الشبـه الخارجية ؛ ويحاول ان يرصد الحالة بمعطياتها المشاعرية بالنسبة اليه هو .. ورغم وجود بعض الملامح الاستقبالية في بنية بعض تصويراتـه لكنها تظل في هذا وذاك (باسترناكية) .. (تنهمـر حـديقة الحلـم بالخنافس الربيعية ، الغربان شبيهة بالاجاص المحروق في غيهب الضباب البري ، المدخنة فوق السطح بومه ، طاحونة الهواء نحيلة تبدو عظامها الشفافة : الهواء منتف بالصراخ ..) واكثر الصور قربا من روحـه ترميزاً لجوهره هي الشمعة التي تتبدى في اكثر من قصيدة (معي .. مع شمعتي تتعلق متوازية عوالم متفحة هذه الاطر المفاجئـة في عـالم الصورة وفي بنيتها الاستعارية ملكت شعر باسترناك خاصية الانطباع في الروح والذاكرة وقد نوه العديد من الشعراء والمثقفين عن ذلـك في مذكراتهم حتى ان مایاكوفسكي اتخذ من احدى رباعيـات باسترناك مقياسا للعبقرية في مقالته كيف نضع الشعر (يجب ان تكون العلاقـة مع الابيات كالعلاقة مع النساء كما في رباعية باسترناك العبقرية)(٦)

من جهة ثانية نجد ان باسترناك يحاول التوحد مع الكون والطبيعة فمواده التصويرية تحاول ان تلبس الطبيعة بكل مظاهرها الحية والعبور منها حتى عبر الحب نحو منشأ الكون وكانه يحاول ان يتوحد مع الزمن ايضا ، والحب لديه شيء غير مادي حتى انه يستهجن تماما ان يكـون محددا بتسمية (انت على حق كلمة حب لفظة سخيفة ، سافكر بتسمية اخرى) ولهذا يرى ان حب الشاعر امر اخر لابد وان يغير حتى موازين الكون كله :

شيء مذهل ياحبيبي عندما يحب الشاعر
الـه طريـد يعشق
وتعود الفوضى الى العالم
كما لو ان الارض تعود الى
العصور المنقرضة (٧)

وتتبلور عمليا الملامح الفنية عند باسترناك منذ مجموعته (الحياة شقيقتي) والتي كتبت معظم قصائدها عام ١٩١٧ خاصة في مجال الانغماس في عالم الصورة المستمدة من عناصر الطبيعة (٨) ويبدو فيها تكريس المفاجيء وانقطاع التسلسل على ان اهم اعماله قبل الثلاثينات هي (العلة الشامخة ، والملازم شميديت ، وكذلك بوئيما ١٩٠٥) وقد لاقت الاخيرة صدى واسعا ، وكان ان كتب باسترناك الى مكسيم غوركي منتظرا تقييما منه لهذا العمل .. (لقد ارسلت لكم كتابي .. وربما بدو شغوفا بانتظار تقييمكم .. لم استطع ان لا ارسله لكم .. انني لا ادري ما الذي تبقى لي من الثورة ، واين هي حقيقتها ان لم تكونوا انتم في التاريخ الروسي) (٩) والواقع ان صمت غوركي لم يكن بدافع سلبي بل امعانا منه بتقييم هذا العمل تقييما ايجابيا (عزيزي باريس ليونيدوفيتش انني لم اذكر شيئا عن مجموعتكم الشعرية (١٩٠٥) لانني لا اعتبر نفسي مقيما ذواقة بما فيه الكفاية للشعر .. ولانني واثق انكم قد مللتم من المديح .. الكتاب رائع .. انه من هذه المؤلفات التي يصعب تقييمها مباشرة بجدارة ، ولكنها مما يبقى لحياة طويلة .. لا اخفي عليكم انني احسست قبل هذا المؤلف ببعض التوتر لان الاشعار السابقة كانت مليئة بشكل مبالغ به بالتصاوير ولم تكن واضحة لي دائما .. لم يستطع تخيلي استيعاب هذه التعقيدات الصعبة، وصوركم غير المتماهية غالبا .. ولكن في هذا الكتاب (١٩٠٥) بدوتم اكثر اصالة مفعمة بالحماس الذي سرعان ما اثر بي كقارىء .. لا .. انه بالطبع كتاب رائع .. انه صوت شاعر حقيقي اشتراكي في اعمق وافضل معنى لهذه الكلمة) (١٠) .

ولا بد من الاشارة الى انه من الصعب فصل ما هو حي عن ما هو غير حي في اشعاره ، ماهو انساني وما هو غير انساني لان باسترناك ينطلق في كثير من اشعاره من ارضية جمالية خاصة تعتمد على التوحيد بالكون ، فهو يعتبر ان الطبيعة – وليس الانسان – هي التي تنظر الى الانسان وتتمحصه وتحسه ، ولهذا كثيرا ما جعل اشياء الطبيعة تتحرك

وتتصرف ككائنات لها ايضا وجهات نظرها ورؤاها ، وينطلق في ذلك من ضمير المتكلم بحيث يعود على الاشياء ذاتها كنوع من الاحساس بألوهية الكون والانطلاق من ارضية (الموناداً) في رؤيته حتى ان المطر يكتسب شعره .. (وينهمر حتى الصباح فتنتظم التورية وهي تنقط من السطح تاركة فقاعات في القافية ..) ومن هنا لاحظ النقاد ان باسترناك لم يولع بابتكار الالفاظ بل حاول الغوص نحو العلاقات الجديدة للمعاني المتشكلة خلال تقاليب التركيب في العبارة .. (لم يكن باسترناك مبتكراً للالفاظ كما كان معاصروه من الرمزيين ، والمستقبليين ، بل حاول ان يبتكر تلك العلاقات المجهولة بين الكلمات والتي غالبا ما تكون عادية تماما والتي تكون احيانا من ينابيع متباينة ..) (١١) . ومن هنا نجح باسترناك بتكريس عالم خاص به من الرؤى يخفي خلفية فلسفية جمالية ولا يحدد الشعر في مجال وحيد ، حيث يرى ان الشعر .. (منتشر في كل العشب ، وتحت الاقدام ويكفي ان ينحني المرء كي يراه وينتقيه من الارض) وهو يتطير ويخشى ان يدوس الكون خلف السياج ، مثل هذه المشاعر المعبر عنها بالرؤى نجدها في كثير من اعماله وخاصة (الاورال)، و (فوق ظهر السفينة) ، (الاورال لاول مرة) ، (عصافير الستريتجي) وفي معظم اشعاره حتى الثلاثينات حيث تتجاوز الاشياء والموجودات عبر رؤاها هي فيتبدى قاموسه مليئا بالغابات ، وزهور الكتان، بالثلوج والتلال وهي (متلاصقة مدونة لصالح ارسالية جولة في عالم الرؤى . .) (١٢)

الخاصية الثانية الرئيسية في شعر باسترناك هي الموسيقى وبشكل خاص السياق اللفظي للحروف في الكلمة والعبارة اي ان الارتكاز الموسيقي اللفظي متمحور بالدرجة الرئيسية حول الجناس الذي يفرعه باسترناك بمهارة فائقة حتى ان هندسية خاصة تبدو بين اسطره بشكل غير مباشر تعطي ميزة لها نكهتها المتميزة لقراءة شعره ايقاعيا فمن حرف رنان يتردد بعد بضعة حروف مشنشنة الى حرف جامد يكون جسرا لايقاع مواز ، ولا شك اننا لن نستطيع في الترجمة اعطاء الملامح

الحقيقية لهذه الخاصية وانما سنحاول تقريبيا ان نـدلل على ذلـك (سارق الخيل خلف السور احتمى ، والعنب تفطى بحمام الشمس) وتلفظ على الشكل التالي (زابورم كرالسا كانفراد ، زاغارم كريلسا فينيفراد) اننا نلاحظ تجانسا تلاحقيا للالفاظ وفـق دفـق داخلي (ا = ا ٢ = ٢ ٣ = ٣ ، بالنسبة للحرف الصوتي ، بو = غـا ، ر يـ = را را = را) انها محاولة لتقديم حركية معبرة بالتوازي مـع الصور المعطاة مما يكرس عناصر تثبتها في الذاكرة الامر الذي نلاحظـه مثلا في اشعار ، بلزاك وكل ذلك لقناعاته أن الملاقات اللغوية يجب أن تترابط في انعكاساتها الصوتية مع الصور المادية المرسومة، كما في مطلع قصيدة الربيع الذي يجري التركيز فيها على الرنين الصوتي (نيسـان حديقة ، ابريل .. بارك) اي الاستفادة من التجاور وليس الترابط الدلالي . وأحيانا يبدو الجناس غير مبرر تماما ، الا انـه يبقى غـير دخيل ايضا بل منتزعا من الجو العام ، وليس صدفة ان يعطي باسترناك عددا من سني حياته في الشباب للموسيقا والفلسفة قبل ان يختط الشعر طريقا حتى ان الناقد سبليفا نوفسكي ينوه الى احدى اهـم الخصائص في شعر باسترناك فيرى انها تكمن (في الثقافة الموسيقية، والتنويع في الايقاعات والمهارة السيمفونية .. مهارة بناء القصيدة كلها كعمل موسيقي تام محققة ومطورة منطلقها بكل الامكانيـات الفنيـة للوسـائل الشعرية) (١٣)

ورغم ميل العديد من النقاد الى اعتبار مجموعة الولادة الثانية) بدءا لتوجه جديد اقرب الى البسـاطة والوضوح الا ان حقيقة الامر انها كانت مجرد ارهاص فقد ظلت معظم نتاجاته في الثلاثينات تحمل الخواص ذاتها وبدأ التوجه النوعي الجديد عطيا منذ الأربعينات وهذا ما يؤكده باسترناك بالذات ، على اننا نلاحظ بشكل عام ميلا واضحا للعزلة والابتعاد عن الكتابات الاجتماعية والسياسية بل من الصعوبة بمكان ان نجد قصيدة مكرسة لموضوع الثورة البلشفية او الموضوعات الكثيرة المتفرعة عنها فكيف كان باسترناك ينظر الى الحياة ، يرى أ .

سينيافسكي ان (المنبع الاساسي للشعر عند باسترناك هو الحياة نفسها فالشاعر في احسن الاحوال هو المشارك فيها وهو المساعد على خلقها والذي يتبقى له ان يحدق جيدا ويندهش ويجمع القوافي الجاهزة في الدفتر المعد لذلك . .)(١٤) على اننا نعتقد ان هذا الراي لا ينطبق على نتاج باسترناك عموما بل يقاربه قليلا في نتاج ما بعد الاربعينات ، كما ان الشق الثاني من هذا الراي والمتعلق بالاسلوب الفني فيه الكثير من الاجحاف وتبسيط التجربة الفنية الفنية التي كان باسترناك بحق واحدا من اعظم المهرة في خلقها وصناعتها ولم تكن (قوافي جاهزة ، او دفترا معدا لذلك) بل كانت معاناة حقيقية في التمازج مع الطبيعة والكون . . والواقع ان باسترناك قد لاقى رفضا حادا وقبولا رائعا بآن معا حيث نظر اليه بعض النقاد كنحات صعب المراس بعيد عن دفوق القلب والروح كما في مقالة أ . بريدريف (قراءة للشعراء الروس) والتي رد عليها الناقد سيرغي سيدوروف منافحا ومؤكدا على الدور الكبير الذي لعبه باسترناك في القصيدة الروسية وعدم جحوده الارث البوشكيني كما تخيل بريدريف . (١٥)

هذا وقد ساهم باسترناك في بعض الكتابات الوطنية اثناء الحرب الوطنية العظمى وغنى مآثر الشعب وازداد قربا من الناس والحياة فازداد وضوحا وبساطة ، وخرج بشكل واسع من بقايا التأثيرات المودرنية واسار التعقيدات التصويرية .

ويكتب باسترناك في بداية الخمسينات روايته الشهيرة الدكتور جيفاكو والتي اختلفت الآراء حولها وادانتها اقلام كثيرة واعتبرت جائزة نوبل التي قرر منحها له عن هذه الرواية عام ١٩٥٨ تكريسا من الاجهزة الامبريالية للتوجهات السلبية في توجهاتها وامكانية تفسيرها كادانة للمجتمع الاشتراكي .

وظل باسترناك حتى اواخر ايام حياته يعيش في ضاحية (بيريدلكينا) مولعا بالطبيعة واجوائها ، وكان بحق كما قال عنه غوركي (مستقلا استقلالا كاملا انه الانسان الذي ولد ويموت محافظا على وجهه الخاص) (١٦) .

صليب ثقيل

ان احب الآخرين ـ صليب ثقيل
ولكن انت بلا عيبه
وسر روعتك
معادل لانكشاف الحياة
حفيف الحلم يسمع ربيعا
وخشخشة المفاجآت والحقائق
انت من جوهر هذي الاصول
وكنهك بريء كالهواء
من السهولة بمكنان ان نستقيظ
وتعود إلينا البصيرة
ان ننفض عن القلب
الاقذار اللغوية
وان يحيا الانسان دون هذه الشوائب
كل هذا ، مكر صغير ١٩٣١

ما هو الشعر

هو الصفير المتكثف حتى يتماهى كتلة
هو فرقعة قطع الثلج حين نضغطها
هو كل ما تبحث عنه الليالي
هو التنافس بين البلابل

هو حبوب البازيلاء الحلوة المقموعة
هو دموع الكون في حزوز الفاصولياء
هو حاملة النوتة ، والمزمار ، والفيكارو
منهمرة بَرَداً على حقيل
هو كل ما تبحث عنه الليالي
في اماكن العوم العميقة .. في القاع
وجلبها لنجمة هناك الى حوض الأسماك
على راحتيها الراجفتين ، الرطبتين
هو انحباس الهواء ، كرقائق الدفوف في الماء
هو جسد السماء حين تنحني مائلة كشجر الحور
عندما يطيب لنجومها ان تضحك
لكن الكون كله .. مكان اصم لا يجيد السماع

١٩١٧

احجية

مر من هنا ظفر سري لاحجيه
الوقت متاخـر
اولى ان انام عميقا من ان اقرا الضوء وافهمه
وقبل الإستيقاظ
انا مؤهل ان المس حبيبتي
كما لا يمكن لأحد آخر ابدا
كيف لمستك ..
حتى ينحاس شفاهي لمستك هكذا

كما تلامس التراجيديا الصالة
القبلة كانت كالصيف
أبطات ، وأبطات
فيما بعد فقط .. لعلع الرعد
نهلت كالطير ، وأطلت حتى فقدت الوعي
وتسربت النجوم عبر الحنجرة
الى حلقي
هكذا تنخطف عيون البلابل حتى البياض
من الارتعاش
وهي ترشف قبلة السماء الليلية
قطرة ، قطرة

١٩١٨

المطر

انها معي فدندن
واسكب ، واضحك ، ومزق الغيهب
اغرق ، وارشح عبارة مصدره
الى حب يشبهك
وتشرنق بالحرير التوتي ، وارتطم بالنافذة
تدثر ، وتشعث ملتفاً ما دام العتم لم
يسيطر تماما ..
ها قد بدا النهار في أوجه
كالليل ، والمطر الغزير مشط له
خذه عن الحصى ، مبللا في كل شيء ، وتابع

بالاشجار كلها ، في العيون ، والفودين
والياسمين
المجد لك ، ايها العتم المصري ..
ها هم يضحكون ، تلاطموا ، سجدوا !
وفاحت فجاة روائح الانعتاق من آلاف المشافي
الآن نركض للقطاف (٦)
كالأنين المنبعث من مائة قيثارة
و (سين كاتارد) الحدائقي مغسول بالغيهب الزيزفوني

الأورال البكر

في الغيهب
دون قابلة ، او ذاكره
كانت قلعة الأورال تستند على الليل
متلمسة بيدها
صاحت بقوة وسقطت مغمى عليها
وعبر غابات مذهلة ، ولدت الصباح
وتدحرجت محدثة فرقعة متصادمة بشكل عفوي
أشياء وبرونزات هائلة نادرة
ولهاث قطار ، في مكان بعيد ما ..
وهوت بتاثير ذلك مائلة اطياف الشجر
بواقد الغابات
وكان منثورا ــ دون شك ــ للمعامل والجبال :
كان الفجر المشجر مثل تاثير أقراص المنوم

بالوحش الخرافي الشرير
وبسارق ماهر مثل الأفيون
لسامر الطريق
وصحا الآسيويون في النار
وهبوط الى الغابات على الزحافات
من الشفق المتورد
لعقوا النعال ، وداسوا الى الصنوبر التيجان
ونادوها الى مملكة التتويج
اما الصنوبرات ،
فقد نهضت تحمي درجات ترقي الملوك
ماضية فوق قشرة الجليد كفطاء
موشى بالمخمل البرتقالي ، والحرير
المطرز ، والتوشيه
١٩١٥

عصافير الستريجي

لا قوة ابداً لعصافير الستريجي المسائية
كي توقف البرودة الزرقاء
التي انفلتت من صدرها الصاخبة
وراحت تنسكب حيث لا يمكن ايقافها
ليس لدى عصافير الستريجي المسائية
اي شيء في الاعالي يعيق هتافها المنتصر :
ايتها المهابه

انظروا الأرض هربت
تخرج الرطوبة الثرثارة
كماء يغلي في دورق
كنبيع ابيض
انظروا .. انظروا.. لا مكان للأرض
من طرف السماء حتى الهاوية

١٩١٥

بستان الحلم

مثل قدر برونزي مليء بالسخام
يتغطى بستان الحلم بالجعلان
معي مع شمعتي بشكل متواز
تتعلق عوالم متفتحة
ادخل في هذا الليل
كدخولي في دين بكر
حيث الحور الرمادي المتهدل
يحجب الدرب القمري
حيث البركة مثل سر متماه
حيث يهمس اضطراب شذى التفاح
حيث البستان معلق بوتد
ويسند السماء امامه

١٩١٢

الشــهرة

ليس الأمــر جميلاً إن كنت شهيرا
ليس هــذا ما يرفع نحو المجــد
لاضرورة لملء الأرشيف
والإرتجاف فــوق المخطوطــات
غابــة الإبداع ، شــيء معطى بذاتــه
وليس ضجيجــا او نجاحــا
ومعيبا ان تكون علماً على شفاه الجميع
حين انت نفســك لا تعني شــيئا
يجب العيش دون ادعــاء
هكذا لكي تجتنب لنفسك ـ في النهايــة ـ
حب المسافات لك
كي نستمع إلى نــداء المستقبل
لا بــد من هجــر الفــراغ
في القــدر لا في الأوراق
حــدّد امكنة وفصول الحياة
في الحقــول ذاتهــا
انغمس في الإنغمار
واخف فيــه خطــاك
كما تختفي الأرض في الضباب
عندما لا يرى منها شيئا في الظــلام
سيعبر الآخرون في طريقــك
بأثــرك الحــي
شــبراً وراء شــبر

ولكن عليك انـت
أن لا تميز الهزيمة مـن النصر
وعليك ان لا تهرب من نفسك مثقال ذرّة
بل ان تكون حبـاً .. حبـاً
وفقط حبـاً تكون حتى النهاية

١٩٥٦

شـتويات

فُتح البـاب ، وانسـاب
الهواء من الساحة بخاراً
عبـر المطبخ
وكل شيء غـدا قديما خلال لحظـه
كما في الطفولة ، في تلك العشيات
طقس جاف وهادىء
وفي الشارع على بعد خمس خطوات
يقف فصل الشتاء حييا عند المدخـل
متردداً في الدخـول
الشتاء .. وكل شيء من جديد لأول مره
وإلى ابعاد كانون الثاني المشيبه
تخرج الصفصافات كالعميان
دون عصي او مرشـد
والنهر في الجليد وفيه ايضـا
شجرة السفرجل المتجمـده

وانتصبت قبة السماء السـوداء
متقاطعة بشكل عرضي على صفحة الجليد العاري
كمـرآة على مسندهـا
وامامها عند تقاطع لم يمتلىء بالجليد تمامـا
انتصبت بتولا وقد انغرست نجمة في شعرهـا
تتامل السطح الزجاجي للسماء
إنهـا ترتـاب سـراً
فلعل الشـتاء طافحة بالاعاجيب
كما لا يمكن ان تتصور
هناك في بيت ريفي قاص
كما هو الامر عندها في الأعالي

١٩٤٤

الجـوهـر

في كل شيء اود الوصول إلى الجوهـر
في العمل ، في البحث عن الطريق
في الغموض القلبي
إلى جوهر ما مرّ من ايام واسبابها
إلى الأصول .. إلى الجذور
إلى النـواة
وان افكر ملتقطاً خيط الأقدار والحوادث
وان احس ، احب وابتدع شيئاً جديداً
آه لو اني استطيع
ان احتوي الجـزء فقـط

لكتبت ثمانيــة اســطر
عن ما هيــة الولــع
عن الأعمال غـير القانونية عــن
عــن الآثــام
عــن الركض عــن التقفــي
عن الصدف ، والعمل السريــع
عن المرافق ، والراحــات
وكنت دبجت قانونهــا .. وبدايتهــا
ورددت أسماءها .. ورموز حروفهــا
ولكنت نسقت الأشــعار كالحديقــة
بكل ارتجاف عروقي واعصابي
ولأزهر الزيزفون فيها بالتتابــع
وكنت عبات بالأشــعار تنفس الزهــر
تنفس النعنــاع
وعباتهــا بالمــروج
ونبــات القصــب
عباتهــا بمواســم الحصــاد
والزوابــع الهــادره
هكذا عبــأ شوبان معجزتــه الحيــه
هكذا عبأ موسيقاه بالحدائق ، والأدغــال
فالهابــة المنشــودة
عــذاب وفــرح
إنهــا وتــر مشــدود
على القوس الصلب

١٩٥٦

بلا عنوان

عفيفة محتشمة في هذا الوجود
انت الآن نار واحتراق
دعيني آخذ جمالك
في مهجع قصيدة معتم
انظري كيف تلظى الوكر
تلظت اطراف الجدران
وحوافي النافذة بوهج القنديل
وكذلك ظلالنا وقاماتنا
على الاريكة تجلسين
وتضمين ساقيك تحتك على الطريقة التركيه
وسيان في الضوء او في العتم
فانت تناقشين بطريقة طفولية
وتنهمكين ساهمة تداعبين حفنة من الخرز
منزلقة في السلك
على ثوبك
محياك والغ في الحزن
وحديثك واضح لا تصنع فيه
انت على حق .. كلمة حب ، لفظة سخيفه
سافكر بتسمية اخرى
من اجلك إذا اردت ساغير
تسمية العالم وكل الكلمات
ترى ايعطي مظهرك الجهم
كنه معدن إحساساتك
الا تلمع رقائق القلب سراً
فلماذا تسربلين عينيك بالحزن اذن ؟

١٩٥٦

←

الحواشي :

١ ـ زرت هذه المنطقة في العام الماضي حيث يحتفظ بالبيت الريفي الذي عاش فيه باسترناك والمؤلف من طابقين وبستان جميل واسع الفيم قربه منتجع للادباء .

٢ ـ من احاديث لي مع بعض من عرفوا باسترناك شخصيا من الادباء المعمرين .

٣ ـ من مقدمة مختارات باسترناك نيقولاي نانيكوف ، موسكو ١٩٨٢ ص ٥ .

٤ ـ مارينا تسفيتايفا ، الملحمية والغنائية في روسيا المعاصرة ، مايا كوفسكي وباسترناك، مجلة الاداب الجورجية رقم ٩ ، ١٩٦٧ .

٥ ـ من مقدمة مختارات باسترناك السابق ص ٦ .

٦ ـ مايا كوفسكي مجلد ٥ ص ٤٧ . ويقصد رباعية باسترناك (ماربوكا)

٧ ـ منتخبات باسترناك دار الكاتب السوفييتي ، لينينغراد ١٩٦٥ ص ٢٢ .

٨ ـ لم تصدر هذه المجموعة الا في عام ١٩٢٢ .

٩ ـ الارث الادبي المجلد ٧٠ (غوركي والكتاب السوفييت) موسكو ١٩٦٣ ، ص ٣٠٩

١٠ ـ المرجع السابق ص ٣١٠

١١ ـ ليديا غينزبورغ (الأشعار الغنائية) دار الكاتب السوفيتي لينيغراد ١٩٧٤ ص ٣٥٠

١٢ ـ نيقولاي اسييف ، مذكرات الشاعر ، دار الامواج المضطربة ، لينينغراد ١٩٢٩ ص١٤٢

١٣ ـ النقد الادبي السوفيتي موسكو ـ دار التنوير ١٩٨١ ص ٣٦١ .

١٤ ـ أ . سينافسكي ، مقدمة لمجموعة باسترناك (قصائد وبوئيمات) دار الكاتب السوفييتي موسكو لينينغراد ١٩٦٥ ص ٢٢ .

١٥ ـ راجع مقالة سيدوروف ، باسترناك ونافده في كتاب ، على الطريق نحو التركيب دار المعاصر موسكو ١٩٧٩ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

١٦ ـ الارث الادبي مجلد ٧٠ ، غوركي والكتاب السوفييت ص ٣٠٩ .

★ ★ ★

آراء حول نظرية الرواية

د. زهير ياسين الشليبة

لقد اولى النقاد وعلماء الادب (*) السوفييت في اعمالهم اهتماما كبيرا بمختلف قضايا نظرية الرواية بشكل عام ولهذا فمن الصعب جدا الأحاطه هنا بشكل كامل بكل وجهات النظر المطروحه حول سمات الرواية وتاريخ ظهورها وتطورها . ونحن هنا نود التطرق فقط الى خصائص الرواية كنوع ادبي وبالذات الى تلك التي تهمنا وتساعدنا في دراسة الرواية العراقية بشكل عام لتحديد المنطلقات النظرية العامة التي سنعتمد عليها في تحليل اعمال غائب طعمه فرمان بشكل خاص .

(*) علم الادب : يتكون علم الادب من ثلاثة اقسام رئيسية وهي نظرية الادب ، تاريخ الادب ، والنقد الادبي . ونشير الى هذا الامر لتمييز علم الادب عن مصطلح « النقد الادبي » الذي يكون قسما اساسيا من الاول ، ولان القارىء العربي لم يعتد على هذا المصطلح في النقد الادبي العربي المعاصر .

على الرغم من ظهور العديد من الدراسات المكرسة بسمات الرواية انها ما زالت معلقة ولم تلق الحلول النهائية « كلاسيكيا » لان مثل هذه الحلول تعني وجود نظرية « كلاسيكية » خاصة بالرواية . نقصد بكلمة « الكلاسيكية » هو وجود نظرية ثابتة ومقره من قبل الجميع ، نظرية يمكن لها ان تحدد اهم سمات الرواية ، التي كثيرا ما إختلف ويختلف الباحثون في تفسيراتهم لها .

ان ما ورد اعلاه يكاد ان يكون مقرا في النقد الادبي السوفييتي ، اضافة الى وجود هذه الظاهرة في النقد الادبي العالمي .

وبلا شك ان هذا حصل ويحصل بسبب حقيقة كون الرواية انسجامية وانسيابية بمعنى انها تطورت وما زالت تتطور بسرعة كبيرة وهي متنوعة الاشكال ، ومنقولة الى مختلف اللغات القومية باعداد كبيرة ، لدرجة ان كل هذا ادى الى صعوبة دراسة خصائص الرواية التي تميزها عن الانواع الادبية الاخرى ، والى ان تكون « الخصائص » خارج اطار التحليل الادبي اليومي الذي يستطيع تسجيل وصف هذا النوع الادبي او ذاك فحسب ويلبي حاجات النقد الادبي اليومي ولكنه يعجز عن تقديم تحليل مفصل وشامل للبناء الروائي . ويكمن سبب التناقض في نظريات الرواية العديدة اضافة الى كل هذه الاسباب الموضوعية ، في تعمق واستمرارية الباحثين في التفكير ولكنهم لم يميزوا بين أساليب التحليل الادبي عند دراستهم الانواع الادبية للعصور .

ونعتقد انه من الضروري عند حديثنا عن الرواية البدء بتلك السمات المتفق عليها من قبل الغالبية العظمى من علماء الادب . ولعل اهم هذه السمات هي ديناميكية الرواية أي تطورها المستمر لانها نوى اولى حديث فإن « هيكل الرواية كنوع ادبي لم يتصلب بعد ونحن لا نستطيع التنبأ بمستقبله ... » على حد تعبير باختين(*) .

اما السمة الاخرى المتفق عليها من حيث المبدا تقريبا فهي حداثة الرواية كنوع ادبي مستقل عن الانواع النثرية الاخرى . وهنا لا بد لنا من القاء لمحه مختصره عن تاريخ ظهور الرواية . من المعلوم ان الرواية ظهرت في العصور الوسيطه ، وانتشرت وتكونت وترسخت في عصر النهضة وازدهرت بظهور البرجوازية . ان هذه الحقيقة تكاد ان تكون مقره من قبل جميع النقاد وعلماء الأدب المتخصصين بالادب ومختلف جوانب تطوره التاريخي بشكل عام والمتخصصين بتاريخ نوع الرواية بشكل خاص . الا ان هذه الحقيقة تفسر بطرق مختلفة من باحث الى آخــر .

فمثلا يرى كل من لوكاس وكوجينوف ان الرواية نوع ادبي برجوازي بينما يرى آخرون (باختين م. م ، غريفتسوف(*) ب. آ.) بأن الرواية هي استمرار « للملحمة الاغريقية » و « رواية القرون الوسطى و « الرواية البرجوازية » « الا ان هذا لا ينفي امكانية ظهور بواكير الرواية الاولى (والفنية فيها) في العصور السابقة » .

(*) للمزيد مـن المعلومات عن ميخائيل باختين راجـع « المعرفـة » العـدد ٢٨١ ، تموز ١٩٨٥ . دمشـق

(*) غريفتسوف بوريس الكسندر وفيتش (١٨٨٥ – ١٩٥٠) ناقد ادبي وفني ومترجم روسي بدا بنشر ابحاثه عام ١٩٠٦ – صدرت له كتب كثيرة نذكر اهمها : « فـن اليونان » (١٩٢٢) ، « كيف عمل بلـزاك ؟ » (١٩٥٨) . وبشكل عـام كرس غريفتسوف اغلب اعماله لادب بلزاك ، وهو اول من ترجم الى اللغة الروسية اعمال بلزاك وفلوبير ورولان وبروست وغيرهم من الكتاب الاوروبيين . وشارك مشاركة فعلية في وضع القاموس الروسي – الايطالي في عام ١٩٣٤ . ونشر عام ١٩٢٣ قصة طويلة بعنوان « ذكريات غير مجديه » .

ونورد هنا راي الباحث السوفييتي المعروف على حد تعبير زاتونسكي (**) كوجينوف (***) الذي اثار اكبر ضجة في الاوساط الادبية السوفييتية حول نظرية الرواية وهو في عنفوان شبابه لتتوضح الصورة اكثر فهو يقول :

« الرواية ظهرت بشكل مستقل في نهاية عصر النهضة فقط .... ظهرت في البداية في التراث الشعبي كاستيعاب مباشر للعلاقات الانسانية الجديدة والعلاقات المتبادلة الجديدة التي لا مثيل لها بين الانسان والمجتمع ، العلاقات المتبادلة المتكونة في بداية العصر البرجوازي(٢) وبناء على هذا الاساس فنحن نلاحظ هنا ان حداثة الرواية يمكن النظر اليها كحداثة « ذات موروث » (لها جذور في العصور السابقة) وكحداثة غير معتمدة على النجاحات الفنية للعصور السابقة (بما فيها الرواية الاغريقية) . اخيرا هناك سمة اخرى تكاد ان تكون مقرة من قبل الجميع ايضا ، الا وهي المقارنة المطلقة بين الرواية والملحمة ، اي معارضة او مقابلة الرواية للملحمة ، مقاربة نوع ادبي حديث لنوع ادبي آخر قديم

(**) زاتونسكي وميتري فلاديميروفيتش : من مواليد ١٩٢٢ في مدينة اوديسا . عضو مراسل اكاديمية العلوم السوفييتية منذ ١٩٦٦ . دافع عن اطروحته « قضايا نظرية تاريخ الرواية الاوروبية الغربية » عام ١٩٦٧ . له كتابات كثيرة عن الرواية الاوروبية الغربية اهمها كتابه المعروفه : « فن الرواية في القرن العشرين » (١٩٧٣) . زاتونسكي عضو جمعية النقاد العاليه واصبح منذ عام ١٩٧٦ نائبا لرئيس الجمعية العالمية لشؤون الادب المقارن .

(***) كوجينوف فاديم فلاديميروفيتش : من مواليد ١٩٣٠ في موسكو . انهى دراسته في كلية الاداب بجامعة موسكو عام ١٩٥٤ . اهتم بمختلف مسائل نظرية الادب ونظرية الرواية خاصة . من اهم مؤلفاته : « اصل الرواية ـ نبذة تاريخية نظرية » ١٩٦٢ . « حول الانواع الادبية » ١٩٦٤ . اغلب كتبه مترجمة الى اللغات الاجنبية . يعمل حاليا باحثا في معهد الادب العالمي التابع لاكاديمية العلوم السوفييتية في موسكو .

تساعدنا على استنباط الاختلافات بينهما . وتظهر بالذات عند مقارنة هذين النوعين سمات الرواية التي تميزها عن الانواع الادبية الاخرى ولهذا فمن الضروري هنا عدم الخلط بين هذين النوعين لانهما مختلفان عن بعض .

ان راي لوكاش بالرواية باعتبارها « شكل ناقص للملحمة » يعتبر كمحاولة ميكانيكية واضحة لمقارنة هذين النوعين الادبيين . وان أول من قارن الرواية بالملحمة كما يقول باختين هو بلانكبورك ، الذي قال في معرض حديثه عن سمات الرواية » ... يجب ان تكون الرواية للعالم المعاصر تماما كما كانت الملحمة للعالم القديم (طرح هذا الراي بكل حذافيره لاول مرة من قبل بلانكبورك ثم ردده هيغل)(٤) .

وان المقارنة هنا تساعدنا على تحديد دور ومكانة الملحمة والرواية في عصري ظهورهما وتخلق ارضا خصبة لطرح الاسئلة والاستفسارات المتواردة في الذهن . ومن أهم هذه التساؤلات هو : هل يمكن مقارنة المشاعر والافكار التي عكستها الملحمة بمشاعر وافكار الانسان المعاصر ؟. وعند الاجابة على هذا السؤال نلمس الاختلاف في بيان وعكس الواقع من قبل الرواية والملحمة علما ان هذه الاختلافات يجب ان تحدد في كل الاحوال باختلاف المشاعر والافكار وباختلاف نمذجة الواقع الاجتماعي المعاش .

ولقد عولجت هذه المسألة بشكل دقيق من قبل باختين في مقالته المذكورة (الملحمة والرواية) وكذلك في كتابه (اشكال الزمان والعرونوتوب في الرواية) وهكذا فان البحث الفكري حتى يومنا هـذا في محاولاته لتحديد نوع الرواية (بشكل عام وباستثناء الدراسات النموذجيـة) يتحرك ضمن الاتجاهات التي اشرنا اليها ، والتي هي في الحقيقة محددة بسمات الرواية الواسعة النطاق (استمرارية التطور ، الحداثة ، المقارنة مع الملحمة) .

واضافة الى هذه السمات في بناء النوع يمكننا ان نلمس سمات اخرى خاصة بالرواية او « ادبية خالصة موجودة في نوع الرواية فحسب . ولكان كل هذا امرا عاديا لو امكن ملاحظة هذه السمات على الصعيد التطبيقي بنفس القدر من السهولة في معالجتها نظريا .

فالرواية هي نوع ادبي هجيني ومختلط يتميز بـ Synkretismós ومتفاعل مع كل الانواع الادبية التقليدية الاخرى وهذا يعني اننا نلمس فيه سمات او آثار كل الانواع الادبية الاخرى تقريبا . الا ان هذا في الوقت نفسه لا يعني ولا بأي حال من الاحوال انتفاء وجود سمات اخرى خاصة بالرواية فقط ، اي غير ماخوذة من الانواع الادبية الاخرى.وكثيرا ما يورد الباحثون عند حديثهم عن هذا الموضوع راي باختين الرائع الذي اصبح « كلاسيكيا » والذي يخص محاولات تقديم كل سمات الرواية اوسمة خاصة بالرواية فقط . ومن الضروري هنا ان نورد نحن ايضا هذا الراي اذ يقول « ... من الصعب على الباحثين تحديد اية سمة معينة وثابتة ، وغير مشروطة بتحفظات من شانها ان تلغيها كليا . ونطرح هنا امثلة على هذه السمات « النسبية » : فالرواية هي نوع ادبي متعدد المواضيع ، ولكن توجد روايات رائعة ولكنها في الوقت نفسه احادية الموضوع ؛ والرواية نوع يتميز بحده المضمون ومع هذا توجد روايات بلغت اقصى حد ممكن ، من الوصف الخالص لا مثيل لها سابقا في الادب . ويقال ايضا انّ الرواية نوع ادبي يعالج مشكلة ملحة وهامة ومع ذلك توجد العديد من الانتاجات الروائية المكرسة للتشويق الخالص ولحالة اللاتفكير وقضاء الوقت التي لا يمكن ان يصل اليها اي نوع ادبي آخر .

ونسمع ايضا من يقول : ان الرواية هي قصة غرامية ، ولكننا نلاحظ أن أعظم النماذج الروائية الاوروبية بأغلبيتها تفتقر الى العنصر العاطفي ، ويقال ايضا : ان الرواية هي نوع نثري ولكن مع ذلك توجد روايات شعرية رائعة(٥) .

الا ان صعوبة تحديد خصائص الرواية اللازمة لها كنوع ادبي مستقل لا يعني بأي حال من الاحوال عدم وجودها ، كما سبق وان أشرنا الى ذلك .

في الحقيقة ان هذه المسألة تتعقد وتعاند عناد المستميت أمام الحلول بسبب تجريدية وعمومية سمات الرواية الخالصة ولكن مع ذلك فمن الممكن تمييز أو « لمس » على حد تعبير باختين بعض القوانين « الحتمية في تطور الرواية ومن الافضل تبيان هذا الامر من خلال مقارنة الرواية بالانواع الادبية الاخرى ولنرى كيف عالج باختين هذه المسألة حيث قال : « انا اجد ثلاث سمات اساسية تميز الرواية مبدئيا عن كل الانواع الاخرى وهي :

١ ـ تنوع أساليب الرواية المرتبطة بالوعي المتعدد اللغات المتحقق في الرواية .

٢ ـ التغيير الجذري في (احداثيات الزمان) للشخصية الادبية في الرواية .

٣ ـ منطقة جديدة لبناء الشخصية الادبية في الرواية وبالذات منطقة ذات حد أقصى من الارتباط بالحاضر (الواقع المعاصر) في عدم تكامله .

تكمن الخاصية الاولى في أن الرواية من وجهة النظر الاسلوبية تمثل عملا فنيا متعدد الاصوات (النفحات) ، أي تتسم بتنوع اشكال الحديث اللهجوية الاجتماعية المختلفة لنفس اللغة .

ان التفصيل الداخلي للغة القومية الواحدة الى اللهجات الاجتماعية ، وطرق حديث الجماعات رطانة اصحاب الحرف ، ولغات الانواع ، ولغات الاجيال والشيوخ ، ولغات التيارات ولغات الشخصيات المعروفة المتنفذة ، ولغات الحلقات ، ولغات الموضات العابرة ، ولغات الايام بل وحتى الساعات الاجتماعية والسياسية (...) ان مثل هذا التفصيل

الداخلي الى طبقات لكل لغة في كل مرحلة من مراحل وجودها التاريخي هو شرط ضروري لنوع الرواية(٦) .

مما يؤسف له ان النقاد الادبيين وعلماء اللغة اغفلوا هذه الموضوعة الجذرية بالاهتمام التي طرحها باختين م ٠ م ٠

وعند اخذ مثل هذه الدراسات وضمها جنبا الى جنب مع الدراسات الاسلوبية الذاتية لهذا الكاتب أو ذاك نلاحظ ان اللغويين عالجوا مسألة لغة الرواية كنوع ادبي قائم بحد ذاته بمعزل تام عن نظرية الرواية العامة .

اما بالنسبة لعلماء الادب فانهم نادرا ما تطرقوا الى خصائص لغة الرواية ولم نجد حتى ولو ملاحظات عابرة عن خصائص الرواية اللغوية حتى ولو كانت هذه الملاحظات طفيفة ومحدودة تهتم فقط بمتابعة الاسلوب ووسائل التعبير وان وجدت مثل هذه الملاحظات سطحية في معالجاتها للهجات أو المفردات الاجتماعية . وظهرت مثل هذه الملاحظات عن استخدام اللهجات في روايات شولوخوف ولكن نادرا ما يدور الحديث عن طرق التعبير اللغوية وعن دورها في تكوين بناء الكلمة الروائية .

ومن الضروري هنا أن نشير الى ان اكثر الدراسات المكرسة لاصل الرواية في الشرق الاوسط لم تعالج مسألة تقسيم اللغة داخليا الى طبقات باعتبارها ميزة هامة من مميزات الرواية كنوع ادبي مستقل عن الانواع النثرية الاخرى .

لا سيما وان لهذه المسألة في الادب العربي اهمية خاصة بحكم اختلاف اللغة العربية الفصحى عن العامية واختلاف العامية العربية من بلد عربي الى آخر ، لا بل من مدينة الى اخرى داخل نفس البلد .

ان الهوة الشاسعة التي تفرق اللغة العربية الادبية الفصحى عن اللهجات الشعبية من الصعب تجاوزها لا سيما وانه لم يكن من الممكن

التفكير بـ « حوار » بين هذين الشكلين ، لان استخدام اللهجة قوبل بنظرة احتقار من قبل الكلاسيكيين وعولجت الاعمال الادبية بالدرجة الاولى من وجهة نظر متانة اللغة ، بمعنى لا عيب فيها ، وهـذا يعني الالتزام بكل ضوابط الكتابة العربية التقليدية . ومما يؤسف له أن مثل هذه الآراء الصارمة صدرت وما زالت تصدر حتى في وقتنا الحاضر والامثلة كثيرة ولا داعي الاشارة اليها بقدر ما هو ضروري الانتباه الى هذه المسألة ويمكن للقارىء ملاحظتها بنفسه :

وبلا شك ان هذا الوضع ظهر نتيجة لتقاليد الكتابة العربية ، التي استمرت لعدة قرون والتي ادت بالتالي الى (قمع) تعدد اللغات في الاعمال الادبية ويمكن لمس آثار هذا (القمع) حتى في الروايات العراقية المعاصرة ما عدا اغلب اعمال غائب طعمة فرمان ورواية « الرجع البعيد » لفؤاد التكرلي وبعض الاعمال الاخرى . ولهذا بالذات نلاحظ ان الكثير من النقاد العرب يقدمون ضريبة هذه التقاليد ويكرسون اعمالهم لتحليل اللغة غير مخفين انبهارهم بالاعمال المكتوبة بالاسلوب الكلاسيكي الرفيع المتكلف فيتشدقون هم أيضا بأحسن عبارات المدح والغزل للكتاب . ولم تعالج هذه المسألة من قبل المستشرقين السوفييت ايضا وهذا يحدث لأسباب كثيرة لعل اهمها صعوبة الاحساس باللغة وفهم مفرداتها وتشريحها . اضافة الى هذا فان هذه الحقيقة تمتلك دويا خاصا عندما تعالج علاقة النثر بالشعر في الادب العربي . وقد اشار الباحثون الى حدود التباين بين النثر والشعر في الادب العربي ولم تقر الكلمة النثرية ككلمة شعرية وسنقوم فيما بعد في مقالة اخرى بأخذ سمة الرواية هذه بنظر الاعتبار ونحاول ان نجد تلك الاعمال الروائية العراقية التي تميزت بهذه السمة .

اما سمة الرواية الثانية فهي برأي باختين التغيير في تصوير الزمان او التعبير عنه في العمل الروائي ضمن « خطوط بيانية » تكشف هذا التغيير . فعلا ان الملحمة كلها عكست الماضي وان مؤلفها المجهول (الشعب)

لا يدعي معرفته الشخصية بالازمان الغابرة ، على عكس الروائي الذي يصور العالم من خلال تجربته الشخصية او تجارب اقرانه ومعاصريه . ان التصميم الزمني في الملحمة مقدم بكل تطوره ويتميز بلا دقته ولا جدواه للعالم المعاصر . « ان تصوير الحدث من قبل الكاتب من منطلق زمني قيّم مقارنة مع نفسه ومع معاصريه (وبالتالي على اساس التجربة الشخصية والخيال) يعني انجاز تحول جذري كبير في لغة النثر ، يعني الانتقال من عالم الملاحم الى العالم الروائي »(٧) .

الا ان هذا لا يعني ابدا اغراق العمل الادبي بالرطانات واللهجات المختلفة وبدون اية ضرورة فنية ، بدون مغزى فني يشعر الكاتب بضرورة بيانه والافصاح عنه بفضل هذه العبارات اللهجوية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يجب التمييز بين « تعدد اللغات » و « تعدد اللهجات » وبين « اللهجة الفصيحة » أو ما يسمى باللهجة المترجمة الى الفصحى ، وبين اللهجة اللهجة ، كذلك يجب التمييز بين الفصحى الطبيعة الفصحى « الاجتماعية » ، التي تدخل ضمن لغة الشارع وكل ما اعتدنا على تسميته باللهجة العامية او اللغة الدارجة وبين الفصحى « الفصيحة » المنغلقة على نفسها ، والتي لا علاقة لها بالواقع الاجتماعي المصور في العمل الادبي . فمثلا ان كلمات (تحدثت ، قلت ، تكلمت ، حكيت والخ) هي فصيحة لا شائبة فيها ، ولكن على الكاتب الموهوب والواعي ان يميز بينها ، بين معاني وأهمية كل واحدة على حدة ، ويستخدم المفردة المطلوبة حسب الضرورة الابداعية ومكان الحدث الدرامي . فالمقصود بـ « تعدد اللغات » هو تنوع الامزجة والطباع والصفات والشخصيات والاهتمامات ، واختلاف طراز الحياة اليومية واساليب التفكير المتعددة ، وكل هذا ينعكس في لغة الشخصيات ، في مفرداتها المستخدمة ، ولكن ليس بالضرورة في لهجاتها ، فقد تختلف لغة شخصيتين فلاحيتين تنتميان الى قرية واحدة ، بل والى عائلة واحدة ، وهنا تكمن موهبة الروائي ورهافة حسه ونباهته في التقاط الغامض من الواقع . فان تعدد اللهجات ما هو الا جانب واحد من جوانب « تعدد اللغات » ، ومن الخطأ الانغمار

باللهجات ، بل والالتزام بتفصيلات-ودقة الفاظها بدون قصد فني واضح، فلا نرى اية ضرورة للالتزام بحروف ومخارج نطق الكلمات اللهجوية وادخالها ضمن الحروف العربية المطبوعة ، لان مهمة الاديب لا تكمن في تصوير الواقع الاجتماعي فقط ، بل وفي تطوير لغة وثقافة الجماهير وتقريبها الى مستوى اللغة العربية الفصحى من خلال الاستفادة من الكلمات العامية ذات الاصل الفصيح . فمثلا ان الفلاحين العراقيين والحضارمة يلفظون الجيم ياء ، فهم يقولون دياية بدلا من دجاجة ، ويدي بلالا من جدي والخ ، فهل ينفمر الاديب بمثل هذه الالفاظ الكثيرة والمختلفة ؟ طبعا لا . ولكن الكاتب الحقيقي في الوقت نفسه لا يمر مرور الكرام امام هذه الظاهرة ، بل يشير اليها ويعبر عنها بطرقه الفنية الخاصة به . فالكتابة الفنية لا تعني دمج لغة الكاتب بلغة الشخصيات ، لغة المشغل الذي يعيش ويعمل فيه الاديب بلغة أهل الشارع ، فان لشخصية الكاتب في العمل الادبي مفرداتها الخاصة وتسمى لغة صوت الكاتب ، وللمبدع نفسه مفرداته الصريحة ، التي ينشرها بطريقته الابداعية الخاصة ، ينشرها ما بين السطور وتسمى حديث الكاتب ، ويمكن ، بل يجب ان يكون لهذا الحديث متنا يظهر الكاتب فيه موهبته في امتلاك ناصية اللغة الادبية الرفيعة ، ولكنها لغة مرتبطة ارتباطا شديدا بعالم الشخصيات ، وبالتالي بالمجتمع ، الذي تعيش فيه هذه الشخصيات ، فهي ليست لغة محصورة داخل جدران مشغل الكاتب فقط ، بل تمتد الى الشوارع والساحات على حد تعبير باختين . فوراء كل كلمة او عبارة تقف ظاهرة اجتماعية ، وعلى الكاتب ان يفصح عن هذه الظاهرة الاجتماعية بالكلمات ، واذا وفق في هذا الامر تتحول عندها كلماته وعباراته الى جمل روائية .

وهنالك ملاحظة اخرى على درجة كبيرة من الاهمية قدمها باختين ي تتلخص بكون الرواية كنوع ادبي يتكون ويتطور منذ البداية على أساس شعور جديد بالزمان(٨) .

اما السمة الثالثة فهي تكمن في خصائص تصوير البطل الروائي الذي يجب أن يقدم بشكل تدريجي وعبر مسار تطور الاحداث وان يكون على صلة وثيقة بالواقع . « وغالبا برزت ضمن هذه المجالات الروايـة الاغريقية التي أولت عنايتها باهتمامات الانسان الخاصة الذي نظم حياته الشخصية وتحكم بالعالم لنفسه »(٩) . فان الروائي ملزم بأن يولي أهمية كبيرة جدا لحياة الانسان الخاص ، ومن المعلوم ان هذه السمة ظهرت في الرواية كنتيجة لـ (سقوط) أشباه الالهة الشيطانية الملحمية في الانواع (الهزلة الحدية) ومن الضروري ان يوجه الروائي اهتمامه للبطل وان تكون علاقته معه وطبيعية وتخلو من الرسميات كتلك العلاقة التي تميزت بها الاعمال اليونانية الكثيرة ، وبناء على هذا الاساس يدخل بطل الرواية في علاقة مع الواقع الغير متكامل ويصبح بطل الرواية كالمعتاد منظرا »(١٠)، أي يمثل مرحلة جديدة من تاريخ تطور البشرية والفكر الانساني .

(١) م . م . باختين مسائل الادب وعلم الجمال . موسكو ١٩٧٥ ، انظر مقالة « الملحمة والرواية » ص ٤٤٧ كذلك اشار الى « انفتاحية » الرواية كنوع كل من ب . ا . غريتسر ، د . بورنيف ، ر . ويلي ف . م . غوليزاده و ي . د . نيكيفوروف .

(٢) زاتونسكي . قضايا نظرية وتاريخ الرواية الاوروبية الغربية • كييف ١٩٦٧ ص ٥١ .

(٣) ف • ف . كوجينوف . اصل الرواية . نبذة تاريخية نظرية . موسكو ١٩٦٣ . ص ٤٢ .

(٤) م . م . باختين . نفس المصدر . ص ٤٥٤ .

(٥) م . م . باختين . نفس المصدر . ص ٤٥٣ •

(٦) م . م . باختين . نفس المصدر . ص ٤٥٧ .

(٧) م . م • باختين . نفس المصدر . ص ٤٨١ .

(٨) غ . ل . ابراموفيتش . مقدمة في النقد الادبي . موسكو ١٩٧٥ . ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٩) م . م . باختين . نفس المصدر . ص ٤٦٤ •

(١٠) م . م . باختين . نفس المصدر . ص ٤٧٥ . كل المصادر باللغة الروسية .

❋ ❋ ❋

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

زهرة على الأرض

سلسلة القصة القصيرة العالمية « ٦ »

تاليف
اندري بلاتونوف

تعريب
اكرم سليمان

* * *

واينسبرغ ، أوهايو

سلسلة روايات عالمية « ١٣ »

تاليف
شيروود أندرسن

ترجمة
أسامة منزلجي

ملف المعرفة

ندوة مركز الدراسات الفلسطينية حول:

عنصرية الصهيونية ومفهوم الاستعمار الاستيطاني

د . صبري حلاوة

ندوة مركز الدراسات الفلسطينية حول:

عنصرية الصهيونية ومفهوم الاستعمار الاستيطاني

د . صبري حلاوة

نحو مقاربة علمية للاستعمار الاستيطاني عامة والصهيوني خاصة

لقد اكدت وقائع الحياة عبر المراحل التاريخية المتعاقبة اهمية الفكر في حياة الناس العملية ، حيث اضاء الطريق امامها حينا واظلمها حينا اخر حسب طبيعة القوى التي عكس مصالحها . وفي جميع الاحوال كان الفكر جزءا عضويا من نشاط البشر ذوي الوعي والمصلحة الاجتماعيين .

فالفكر الاجتماعي بمختلف تياراته ومدارسه وحقول معالجاته كان على الدوام متحيزا وان بدا ظاهريا محايدا في بعض الاحيان . فحيثما كان الواقع الاجتماعي متناقضا كان الفكر الذي عالجه متناقضا ايضا لان الثاني مرآة للاول .

الا ان الاعتراف بتناقض الحياة الاجتماعية والفكرية لا يعني المساواة بين اطراف القوى الاجتماعية والسياسية المتناقضة وافكارها وبالتالي انكار امكانية ان يعكس فكر احد هذه الاطراف حركة الواقع الاجتماعي بامانة وموضوعية . فالملاحظة العلمية لحركة التاريخ الواقعي تشير الى ان القوى الاجتماعية صاحبة الامتيازات قد دافعت افكارها بشكل دائم عبر المراحل التاريخية المتعاقبة عن بقاء ذلك الواقع المعاش وبررت ديمومته ، في حين ان افكار القوى المحرومة من تلك الامتيازات قد دعت الى تغييره . وفي الوقت الذي كانت فيه افكار الاولى تحاول طمس عناصر الحركة في ذلك الواقع من خلال ابرازها لمظاهر السكون الخارجي له ، كانت افكار الثانية تبرز تلك العناصر فيه باعتبارها جوهر ذلك الواقع مؤكدة ان السكون فيه ظاهري ونسبي ومؤقت .

لقد شكل تناقض الحياة الاجتماعية ــ بما فيها السياسية ــ على الدوام مصدرا لصراع القوى ذات المصالح والاتجاهات المتعاكسة وارضية انبثق منها ذلك الميل العام لتطور البشرية الصاعد عبر مراحل تاريخية متعاقبة ومتباينة نوعيا احداها عن الاخرى طبقا لمضمون كل منها .

وخلال ذلك عجزت شتى الامبراطوريات العظيمة في قوتها والشديدة في عنفها عن الغاء مسيرة التطور او وقفها ــ وان كانت قد تمكنت احيانا من اعاقتها لفترة زمنية محددة ــ ان ذلك العجز ومواصلة التطور ينبع من طبيعة الحياة المتناقضة نفسها وليس مقحما عليها من الخارج . وبقدر ما ينفذ فكر الانسان الى اعماق هذه الحياة ويكشف عن العلاقات السببية الكامنة وراء هذا الخضم الواسع والمعقد من تفاعلاتها ، يقترب ذلك الفكر شيئا فشيئا من امتلاك المعرفة النظرية التي تخفف اعباء الممارسة العملية الموجهة لتغيير الواقع وتطويره ، وتساعد على اختصار زمن عمليات ذلك التغيير .

وانطلاقا من هذا الوعي لمكانة ولدور الفكر الذي يأخذ بمنهج معرفي يتطابق مع حركة الواقع وتناقضاته ، ننظر الى الفكر السياسي

العربي وخاصة التحرري منه حقا ، الذي ارتبط خلال تطوره المعاصر بصراع امتنا العربية ضد السيطرة التركية ومن ثم ضد مختلف اشكال السيطرة الاستعمارية اللاحقة ، متطلعين اليه بأمل ومثابرة كي يـأخذ دوره في اضاءة طريق الممارسة الثورية امام حركة التحرر العربية علها تجتاز ازمتها الراهنة لتواصل تحقيق مهمتي التحرر السياسي والتغير الاجتماعي المترابطتين عضويا .

ان الوعي الذي يفصل بين هاتين المهمتين في هذه المرحلة من تطور تاريخنا السياسي والاجتماعي لايعدو كونه ميكانيكيا بتجاهله طبيعة تركيب القوى الاجتماعية في بلادنا وتمايز مصالح كل منها وكيفية انعكاس تلك المصالح على مواقفها الداخلية وارتباطاتها الخارجية . فموقف هذه القوى ازاء القضايا الاجتماعية الداخلية في بلادنا هو الذي يحدد موقفها وتصرفاتها الفعلية تجاه العدو الخارجي . وعندما لايتطابق هـذان الموقفان ويتنافران يكون هنالك في الواقع ثمة تزييف لاحد الموقفين ينبغي الكشف عنه وتعريته بنفس الجراة والصراحة التي نواجه بها عدونـا الخارجي .

فتجارب حركات التحرر الوطني الحديثة عامة وفي وطننا العربي خاصة علمتنا ان القوى السياسية التي تنحني امام العدو الخارجي وتستسلم له وتتكيف مع سيطرته المباشرة او هيمنته على بلادنا لايمكنها ان تكون مخلصة وجريئة في دفاعها عن متطلبات التغيير الاجتمـاعي التقدمي حتى وان ادعت في ادبياتها ذلك . ونفس الشيء بـالنسبة للقوى السياسية التي تقف موقفا عدائيا من قضايا التغيير والتقـدم

الاجتماعيين فليس بمقدورهـا أن تكون مخلصة وجريئة في مواجهـة العدو الخارجي حتى تحقيق النصر عليه نظرا لارتباط الموقف بالمصلحة.

ويمكننا استخلاص هذا التعميم من الخط البياني لمسار مواقف مختلف القوى السياسـية العربية تجاه الاستعمار الاستيطاني في فلسطين

الذي يمثل نموذجا لاكثر اشكال السيطرة خطورة على كامل وطننا العربي سواء من زاوية استكمال تحرره السياسي والاجتماعي او من زاوية تحقيق وحدته القومية ذات المضمون الديموقراطي التقدمي .

ومرد ذلك الى كون آلية تحقق هذا الشكل من السيطرة قد تطلبت طرد شعبنا من وطنه واحلال مستوطنين استعماريين مكانه الامر الذي ترتب عليه نتائج مغايرة تماما لنتائج اشكال السيطرة الاستعمارية الكلاسيكية الاخرى التي عرفتها اقاليم الوطن العربي باستثناء حالة الجزائر .

وبذلك يكون قد القي على كاهل الفكر السياسي العربي عامة والفلسطيني المقاوم خاصة ، مهمة من نوع جديد هي البحث في هذا الشكل الخاص من السيطرة الاستعمارية المتمثل في كونه استيطانيا.

الا ان الخصوصية الاستيطانية في فلسطين ليست هي الاولى بل كانت الاخيرة من نوعها فالملاحظة والاستقراء التاريخيين يشيران الى انها جزء من سلسلة ظواهر عديدة مشابهة ذات اصول اجتماعية واحدة، ظهرت جميعها في سياق نشوء وتطور نظام سياسي دولي جوهره ربط بلدان ماوراء البحار (اي خارج اوروبا) واخضاع شعوب وثروات تلك البلدان لسيطرة واستغلال ذلك النظام ، بحيث شكل الاستعمار الاستيطاني لفلسطين خاتمة لنمط الاستعمار الاستيطاني عامة برغم كون حالة فلسطين تحتفظ ببعض السمات الخاصة بها .

ولهذا فان المقاربة العلمية لظاهرة الاستعمار الاستيطاني في بلادنا تتطلب منا ارجاع هذه الظاهرة الى اصولها الاجتماعية السياسية التي افرزتها ، والكشف عن الصلات الواقعية التي تربطها بغيرها من الظواهر المشابهة لها ، وتحديد المكانة التي تتبواها في منظومة تلك الظواهر [اضافة الى تحليل الالية الخاصة بحركة هذه الظاهرة ، وكيفية تحديدها لشروط وجودها] المادي في الدرجة الاولى . [وباختصار انها مقاربة

مادية تاريخية نتجاوز فيها حدود جمع المعلومات عن الوقائع والاحداث المتعلقة بها على الرغم من اهمية ذلك ولكون الدراسات المتخصصة قد تكفلت بهذا الجانب ـ لنركز على سياق نشوئها وتطورها وآفاق مستقبلها.

لقد اوضحت الدراسات والابحاث التاريخية والاجتماعية والاقتصادية الجادة ، ان الاصول الاجتماعية لمختلف انماط الاستعمار سواء التي كانت في شكل احتلال عسكري مباشر او في شكل هيمنة اقتصادية (اما على مصادر المواد الخام او على اسواق تصريف البضائع او استثمار رؤوس الاموال) او التي جاءت على شكل اصطناع مجتمعات غير عادية بزرع مستوطنين اوروبيين يقيمون بشكل دائم في البلدان الخاضعة للسيطرة الاستعمارية تعود الى القارة الاوروبية خلال تحول مجتمعاتها من التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الاقطاعية الى التشكيلة الراسمالية وما تلاها من تطورات . ويمكن القول في هذا الصدد ان الاكتشافات الجغرافية العلمية واثرها على تراكم راس المال الاولي ومن ثم على تطور الصناعة في اوروبا كل ذلك حمل معه صراعات سياسية واجتماعية عميقة ادت الى تغيير البنائين التحتي والفوقي فيها مما خلق شروطا جديدة للتطور الداخلي والخارجي . على اساس الصراع بين قطبي التناقض في قاعدة التشكيلة الجديدة وهما العمل وراس المال.

فسياسة الغزو والتوسع الاستعماريين وعمليات الاستيطان التي تموضعت خارج اوروبا في عديد من القارات والجزر جاءت تعبيرا عن الميل العام لتطور راس المال باتجاه تحقيق اقصى الارباح على حساب قوة العمل في بلاده والشعوب المستعمرة خارج تلك البلاد ، الامر الذي خلق اساسا موضوعيا فيما بعد لتحالف حركة تحرر قوة العمل في البلاد الراسمالية المتطورة صناعيا وحركة تحرر الشعوب المستعمرة لكون نقيض الحركتين واحدا ممثلا في راس المال بمختلف درجات تطوره .

واذا كانت ظواهر استغلال قوة العمل تلك والشعوب المستعمرة كلاسيكيا قد اعطيت حقها من الدراسة والبحث العلميين واستخرج

من سياق تطورهما الموضوعي القوانين العامة التي عكست حركة ذلك التطور ؛ فانه بالمقابل لم تنل ظواهر : الاستعمار الاستيطاني العناية المعرفية التي تستحقها بحيث اقتصرت على المعالجة الفردية لكل حالة على حدة وبشكل تجريبي (معلوماتي) دون تناول التشابه في المنشأ والبنية وواقع الترابط العضوي خلال تطورها . وبمعنى آخر نقول ان منظومة الظواهر الاستعمارية الاستيطانية بقيت دون مستوى التعميم النظري الذي يستخرج القوانين العامة بشأنها من مسار تطورها .

ان القول هنا بوجود عام في هذه الظواهر لايعني تجاهل ماهو خاص في كل ظاهرة منها على حدة ، فمقولة العام والخاص تعكس موضوعيا جوانب متمايزة من جهة ومترابطة من الجهة الاخرى في هذه الظواهر وعملياتها .

ومع ان معرفة ما هو عام فيها يشكل شرطا اساسيا لامكانية الانتقال الى تحديد خصوصية كل منها ، الا ان الاكتفاء بمعرفة هذا العام فيها يجعلنا دون القدرة على التأثير في أي منها لكونه يبقينا في حيز التشابه (التماثل) دون بلوغ مستوى التمايز القائم فعليا في كل حالة .

واذا اخذنا مثالا على الفكر الذي يفصل بين ماهو عام وما هو خاص في تفسيره لظواهر الاستعمار الاستيطاني والنتائج الضارة على الممارسة العلمية لتصفية هذا الشكل من الاستعمار ، لوجدنا ان الفكر السياسي العربي يمثل نموذجا على ذلك . فخلال تصديه لمعالجة الاستعمار الاستيطاني في فلسطين غاب عنه ما هو عام في هذه الظاهرة ، ولذلك بقي محصورا في زاوية الخصوصية والتفردية المعكوسة في فكر الحركة الصهيونية التي اكثر ماتخشاه هو الكشف عن العام في هذه الظاهرة لكونه يميط اللثام عن الجذور الاجتماعية الحقيقية لنشأتها وارتباطاتها الحالية وخاصة عن انجازها الرئيسي في فلسطين ، ولذلك نرى ان جميع انشاءاتها الفكرية تؤكد على انها فريدة من نوعها لايجمعها بغيرها من

الظواهر اي وجه شبه ، وتوحي بانها تعيش وتنشط خارج التاريخ ورغما عنه وليس بفضله .

فغياب نظرية الاستعمار الاستيطاني العامة عن الفكر السياسي العربي جعله يغرق في محيط التفردية الخصوصية الصهيونية(اليهودية) ويعود الى الوراء كثيرا منقبًا في الاساطير البالية علّه يجد مايدعم حججه في مناظرته للفكر الصهيوني من نفس المنطلقات الميتافيزيقية ، ومستخدما مفاهيمها ومقولاتها التي ابتدعتها لتزييف الحقائق وتضليل الاخرين . ولهذا بقي الفكر العربي منفعلا تجاه الفكر الصهيوني شأنه في ذلك شأن الممارسة العملية العربية تجاه النشاط الاستعماري الصهيوني وسياسته الاستيطانية العدوانية .

ويمكن الملاحظة هنا مع الاسف الشديد ان ممثلي التيار المادي الجدلي في الفكر السياسي العربي قد وقعوا هم ايضا في اسر هذه الخصوصية والتفردية المتمثلة حسب رأيهم في اليهودية ، وبذلك انجذبوا رغما عنهم الى مواقع المعرفة الميكانيكية واحيانا الى مواقع المثالية ذاتية كانت ام موضوعية ، الامر الذي ترتب عليه بالضرورة تذبذب في المواقف السياسية قادهم اخيرا الى التدرج في اتجاه التكيف مع الظاهرة الاستيطانية الاستعمارية في بلادنا والى عدم المساهمة في الصراع العنيف ضدها . فمن يجهل العام في الظاهرة الاستيطانية يجهل الخاص فيها بالضرورة ، لانه يراها بمفردها ومعزولة عن غيرها لذلك يقف منها موقفا كميا ، وليس نوعيا ، ويراها من زاوية الحدود وليس من حيث الوجود فهو لايراها نمطا من العلاقات بل حجما بشريا ومساحة جغرافيــة .

لهذا كله نرى ان مصلحتنا في الدفاع عن وجودنا وتحرره تتطلب من فكرنا التحرري القاوم ان يعكس هذه المصلحة بامانة وموضوعية، وذلك من خلال تملكه المعرفي لحركة واقعنا وواقع نقيضنا وتحديد

مكانة كل من هذين النقيضين في حركة هذا العالم الواسع المضطرب والذي ترتبط فيه بحكم الضرورة .

وفي مقدمة الاولويات التي تواجه فكرنا تأتي مسالة استنباط القوانين العامة التي تحكمت في حركة نشوء وتطور عمليات الاستعمار الاستيطاني عامة ، ليسهل علينا دراسة كيفية فعل هذه القوانين في حالة بلادنا الخاصة ـ فلسطين ـ مما يجنبنا مغبة الوقوع في اسر الخصوصية والتفردية (الصهيونية) لانه لم يكن بوسع نشوء هذا الخاص لو لم يوجد ذلك العام اصلا .

السمات العامة المشتركة لظواهر الاستعمار الاستيطاني تتمثل هذه السمات في :

١ ـ وحدة الاطار التاريخي الاجتماعي لهذه الظواهر المتمثل في تاريخ نشوء وتطور اسلوب الانتاج الراسمالي على الصعيد العالمي بمختلف درجات تطوره حيث تشكلت هذه الظواهر في سياق تحقيق متطلبات سيادة هذا الاسلوب وتدعيم اركانه في مركز نشوئه ، وفي ضواحي توسع ذلك المركز لربطها به كمجال حيوي له .

وقد رعت البرجوازية الاوروبية الاستعمارية صاحبة الامتيازات والمصلحة في هذا الاسلوب هذه العمليات تخطيطا وتنفيذا وحماية وامدتها بكل مقومات الحياة ، بحيث لم تنشا عملية استيطان واحدة خارج اطار حماية وتشجيع الدول الاستعمارية ، بل ان جل هذه الظواهر وعملياتها سواء الناجحة منها أو الفاشلة قد تمت في ظل الحماية العسكرية لجيوش تلك الدول .

وليس من الغرابة في شيء ان نلاحظ كون عمليات الاستيطان الاستعماري الناجحة في كل من امريكا الشمالية ـ كندا والولايات المتحدة الامريكية ـ وكذلك في استراليا ونيوزلنده ، قد نشات ، فيها

بوصفها مستعمرات بريطانية لكون هذه الدولة قد تمتعت بالنصيب الاكبر من المستعمرات والقوة البحرية والسيادة على عالم ما وراء البحار ـ خارج اوروبا ـ في تلك الاوقات . ولا يترتب على هذا القول ان كل العمليات الاستيطانية التي رعتها بريطانيا قد نجحت فهنالك العديد منها قد فشل ، مثال ذلك اوغنده وكينيا . كما فشلت ايضا كثير من

العمليات الاخرى كما هو الحال في كل من الجزائر وموزامبيق وانغولا وروديسيا ، وغيرها ولا تنحصر اسباب النجاح او الفشل في طبيعة الدولة المستعمرة صاحبة الرعاية للاستيطان فقط بل هنالك اسباب اخرى عديدة تفاعلت فيما بينها وانجبت حالات النجاح او الفشل .

والى جانب الحالات المذكورة هنالك حالات لم يحسم وضعها النهائي بعد لصالح النجاح او الفشل في كل من جنوب افريقيا وفلسطين وكاليدونيا الجديدة (الفرنسية) .

ان الحكم على الظواهر والعمليات الاستيطانية الاستعمارية بانها من افرازات النظام الرأسمالي اجتماعيا وسياسيا ليس من قبيل الدعاية الايدلوجية بل يعكس حقيقتها كما هي في الواقع نشوءاً وتطوراً ومآلا . ويكفي ان نسأل انفسنا هذين السؤالين البسيطين والمستمدين من تاريخ الماضي والحاضر .

هل من قبيل الصدفة ان بريطانيا الرأسمالية المتطورة قائدة النظام الاستعماري العالمي وحاميته لعدة قرون خلت قد كانت هي الراعية الاولى والمدافعة عن الكيانات الاستيطانية الاستعمارية ؟؟.

وهل من قبيل الصدفة ايضا ان الولايات المتحدة الامريكية ـ الدولة ذات المنشأ الاستيطاني الاستعماري ـ التي تسلمت فعليا ـ بحكم تطور قواتها ـ من بريطانيا قيادة النظام الرأسمالي العالمي مسؤولية حمايته على الصعيد العالمي ، هي التي ترعى وتحمي الكيانات

الاستيطانية الاستعمارية في كل من جنوب افريقيا وفلسطين وتمددها بكل اسباب الحماية والعدوان ليس على شعوب هذين البلدين الاصليين وحسب بل وعلى محيطها الاقليمي ايضا .

ان الاجابة الموضوعية تؤكد وحدانية الاطار التاريخي لنشوءوتطور تلك الظواهر وعملياتها ليس في الماضي وحسب بل وستحدد حركة هذا الاطار افاق مستقبل تلك العمليات التي لم يحسم وضعها النهائي بعد.

٢ ـ وحدة الطبيعة الاصطناعية النشأة الجماعات الاستيطانية الاستعمارية او ان وعي التمايز بين المجتمعات العادية والمجتمعات او الجماعات الاصطناعية يبدأ بتحديد الفروقات القائمة موضوعيا بين نمطين اساسيين من التجمع البشري متباينين من حيث طريقة نشأة كل منهما وكيفية تطوره وطبيعة المشاكل الناجمة عن تلك النشأة ، وكذلك التطور وكذلك من حيث الاهداف ، فمفهوم المجتمعات العادية هنا يعبر عن نمط من المجتمعات البشرية نشأت وتطورت بشكل طبيعي ومتواصل من حيث علاقتهم بالوسط الجغرافي الذي يعيشون عليه من حيث تطور معنى هذا الوسط فيما بعد ليأخذ مفهوم الوطن ومنه اشتقت صفة الوطنية . وقد ترتب على ذلك نشوء علاقة طبيعية بين تلك المجتمعات والوسط الاقليمي المجاور ديموغرافيا وحضاريا اضافة الى ان زيادة افراد هذه المجتمعات كانت تتم بطريقة الولادة .

اما من حيث تطور هذه المجتمعات فقد جرى على ارضية تفاعل سكانها المستقطبين اجتماعيا بموجب التناقض الاساسي بين من يملكون وسائل الانتاج وبين من لا يملكونها في داخل كل مجتمع، كما تأثر ذلك التطور أحياناً بالصراعات مع القوى الخارجية اما بقصد السيطرة عليها لاستغلالها او التخلص من تلك السيطرة ، وذلك الاستغلال تبعا لطبيعة القوى السائدة في تلك المجتمعات ومصالحها .

ولكن مفهوم المجتمعات الاصطناعية يعبر هنا عن نمط من المجتمع البشري سمته الاساسية هي التكوين الاستيطاني اي هجرة السكان من البلاد الاوروبية سواء كانت هذه الهجرة فردية ام جماعية اختيارية ام اجبارية لانها في الواقع العملي ادت الى تغيير موطنهم الاصلي وموقعهم الاجتماعي فيه واستقرارهم بشكل دائم في موطن جديد غريب عليهم جغرافيا وديموغرافيا وحضاريا وفي وقت كانت فيه شعوب اقاليم الاستيطان قد استقرت منذ وقت طويل واقامت في اوطانها نظما اجتماعية وحضارات خاصة بها ، الا ان ذلك لا يقودنا الى الاستنتاج باعتبار ان جميع حالات الهجرة تؤدي بالضرورة الى قيام كيانات استيطانية استعمارية .

فهناك شروط معينةمادية وروحية ينبغي توفرهالجماعة المستوطنين كي تتحول الى كيان اجتماعي ومن ثم سياسي خاص بها يميزها عن مجتمع الوطنيين الاصلي ، ومن بين اهم شروط الالية الداخلية لهذا التحول هو عدم اندماج المستوطنين في المجتمع الاصلي وبقاءهم في عزلة عنه واستمرار انغلاقهم على انفسهم الامر الذي يؤدي بالضرورة الى حتمية تطورهم الاجتماعي المنفصل المتميز والمتمايز عن المجتمع الاصلي .

وقد اثبتت كافة التجارب الاستيطانية الناجحة ان عملية خلق شروط هذا الوجود المفصل وتطوره قد تطلبت بالمقابل عملية تقليص لشروط وجود المجتمع الاصلي واعاقة تطوره وصولا الى انهاء ذلك الوجود .

ومن هنا كانت جميع حالات الاستيطان الاستعمارية الاولى الناجحة ابادية للسكان الوطنيين كما هو الحال بالنسبة للهنود الحمر في امريكا الشمالية والقبائل التي كانت تقطن استراليا وكندا والحلالية للمستوطنين ، والا يدهشنا في شيء نحن الذين عشنا تحت عسف سياسة الانتداب البريطاني وجيوشه ان تلك الابادة قد جرت ليس تحت سمع وبصر وحراسة الجيوش الاستعمارية البريطانية وحسب بل وبتحريض قننته اعلى الهيئات التشريعية البريطانية انذاك .

وعلى سبيل المثال وليس الحصر فقد اصدرت الجمعية التشريعية في انكلترا عام ١٧٠٣ قانونا بدفع مكافأة مالية قدرها ٤٠ جنيها استرلينيا عن كل جلدة راس مسلوخة مع شعرها لهندي احمر وعن كل اسير هندي احمر .

وعلاوة على ابادة شعوب اقاليم الاستيطان فقد تطلبت عملية اصطناع مجتمعات استيطانية استعمارية نقل عشرات الملايين من الافارقة الى اقاليم الاستيطان خارج افريقيا لاستغلال قوة عملهم اضافة الى عشرات الملايين الاخرين ممن هلكوا اثناء عملية النقل . فقد قدر ما تم نقله من الافارقة الى الاقاليم خارج اوروبا في قرن واحد فقط وعلى شكل عبيد باربعين مليون انسان (٤٠ مليون) باستثناء الذين هلكوا منهم ، ولهذا يقدر عدد الاجمالي المستنزف من سكان افريقيا بين ٨٠ الى ١٠٠ مليون انسان .

بهذه الطريقة اصطنع الاوروبيون الاستعماريون مجتمعاتهم الاستيطانية ليحضروا الشعوب الاخرى اسما بعد ابادتها فعلا .

ومن جهة اخرى يركز بعض الدارسين لظواهر الهجرة الاوروبية الاستيطانية على مسألتي الطرد او الجذب في تلك الظواهر وخاصة على الدوافع الاقتصادية او الفكرية او السياسية التي حملت المستوطنين على مغادرة اوطانهم الاصلية ، من جهة اخرى ، وعلى عناصر الترغيب التي اجتذبتهم لمواطن الاستيطان الجديدة ، سواء كانت دينية او اقتصادية او فلسفية .

ومع الاقرار بالاهمية المعرفية لهاتين المسألتين الا انه من وجهة نظر ومصلحة مجتمع الوطنيين الاصلي فان النتيجة العملية واحدة بالنسبة اليه تتمثل في حتمية تصفيته اذا ما استطاع المستوطنون ذلك . ولا يغير من هذه الحقيقة في شيء اذا كان المهاجر المستوطن في بلاده الاصلية ميسورا او معدما عاملا او برجوازيا لان ما يقرر شكل علاقته بمجتمع

الوطنيين في ارض الاستيطان ليس وضعه الاقتصادي والاجتماعي السابق على هجرته بل وضعه الجديد الذي يتحدد على ضوء طريقة تفاعل الجماعة الاستيطانية التي ينتمي اليها مع مجتمع الوطنيين .

٣ ـ وحدة المصالح وطريقة تحقيقها : اذا كانت مصلحة الدول الاستعمارية قد تمثلت في السيطرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية على الاقاليم المستعمرة مع الابقاء على مكانها لاستغلال قوة عملهم في حالات السيطرة الكلاسيكية الامر الذي جعل تلك السيطرة تاخذ طابعا مؤقتا ، فان مصلحة المستوطنين الاستعماريين قد تطلبت الاستحواذ على ارض الاقليم المستوطن دون سكانه لجعل تلك السيطرة تأخذ طابعا مستديما .

ومن هنا فان الصراع من اجل الاستحواذ على ارض الاقليم المعني والتثبت عليها يعتبر موضوعا جوهريا ومقياسا لنجاح او فشل المستوطنين الاستعماريين في السيطرة على ذلك الاقليم .

وفي حين شكل تدفق المهاجرين الى الاقاليم المستوطنة شرطا ديموغرافيا لنشوء مجتمع المستوطنين وزيادة قدرته في حسم الصراع مع مجتمع الوطنيين فان تجريد هؤلاء الوطنيين من اراضيهم وزيادة تقليص تواجدهم على تلك الأرض قد شكل شرطا ماديا اساسيا آخر في وجود مجتمع المستوطنين .

وهكذا فالصراع على الارض هنا لا يجري من اجل استخدامها كوسيلة انتاج او كسلعة تخضع لحق التملك البرجوازي ، بل كوطن لاقامة مجتمع اصطناعي خاص منفصل عليها .

كما ان المطلوب تغييبهم عن هذه الارض لا ينتمون الى فئة اجتماعية معينة من فئات المجتمع الاصلي بل جميعها دون استثناء .

ومن هذه الزاوية يمكن تفسير الاجراءات القانونية والتنظيمية الادارية التي اعتمدتها الدول الاستعمارية ودعمتها بوليسيا وعسكريا من اجل مصادرة اراضي الوطنيين ونقلها الى المستوطنين في مختلف حالات الاستيطان . وكذلك تشجيع تلك الدول للمؤسسات والشركات الاستيطانية ومنظماتها الارهابية في اعمالها للسيطرة على الاراضي وابادة السكان الاصليين بحيث شكلت هذه المؤسسات والشركات دولة داخل ادارة الدولة الاستعمارية لاقليم الاستيطان . ومن اجل تحقيق مهمتي الاستحواذ على الارض والتخلص من السكان الاصليين لجأ المستوطنون الاستعماريون في كل حالات الاستيطان الى اكثر اساليب العنف قساوة ووحشية منذ ان وطئت اقدامهم ارض الاستيطان اضافة الى عنف وقساوة الجيوش الاستعمارية التي عمل المستوطنون في كنفها وتحت حراستها كل ما يناسب مصالحهم قبل تحقيق سيطرتهم المباشرة اداريا على الاقاليم المستوطنة .

٤ ــ وحدة الفكر الاستيطاني : ــ نظرا لكون الاستعمار الاستيطاني جزءا من عميلة توسع وهيمنة الدول الاوروبية في مرحلة من تطور نظامها الاجتماعي الاقتصادي الراسمالي لذلك نلاحظ بالملموس ان مجموع الفكر الاستيطاني جاء تعبيرا حقيقيا عن مصلحة الطبقة السائدة والقائدة في اوروبا الراسمالية وتبريرا لنشاطها الاستعماري فيما وراء البحار بقصد اقناع سكان اوروبا اساسا للانخراط في ذلك النشاط .

ويمكن ملاحظة ان جميع المقولات والمفاهيم التي سيقت لتسويغ وتبرير هذه العملية الاستيطانية او تلك ، كانت متشابهة ومن بين ابرز هذه المفاهيم والمقولات ما يلي :

أ ــ الرسالة المدينية : ومفادها ان النشاط الاستيطاني يهدف الى تحقيق رسالة الهية من اجل ادخال الشعوب الوثنية في دين الله ، حيث كان المبشرون المسيحون ورجال الدين في طليعة الجيوش الاستعمارية المحتلة وقادة الحركات الرواد الاوائل الذين ذهبوا بقصد الاستيطان ،

كما استخدم مفهوم **الشعب المختار** من قبل الفكر الاستيطاني قبل ان تستخدمه الحركة الصهيونية بكثير ، حيث وصفت الشعوب الاوروبية المسيحية بأنها مختارة من قبل الله لنشر دينه وخاصة في المناطق المكتشفة حديثا في الأمريكيتين ، وقد كان رجال الكنيسة الكاثوليكية روادا في هذا المجال وخاصة الاسبان والبرتغاليين منهم .

ب ـ الفكر العنصري : ومفاده ان هنالك تدرجا في التطور البيولوجي للشعوب والامم وان الاوروبيين يقفون في اعلى درجات هذا السلم ولذلك فمن حقهم بل ومن واجبهم السيطرة على الشعوب الاخرى التي اقل منهم بدرجات وخاصة في بلدان ما وراء البحار . وقد ترتب على نشر هذه الافكار تبرير عملية التمييز والفصل العنصري المعبر عنها بضرورة عدم الاندماج بحجة المحافظة على النقاء العنصري الاوروبي ورقيه .

ج ـ مفهوم الرسالة الحضارية : ومفادها ان هنالك شعوبا ارقى من غيرها حضاريا ولذلك فان التاريخ قد اناط بها رسالة تحضير الشعوب الاخرى التي هي أقل منها وما زالت تعيش في طور الهمجية او في طور ما قبل الحضارة كما ادعوا .

د ـ مفهوم التعمير : ومفاده ان الاراضي التي تقطنها الشعوب المتخلفة هي خراب وغير مثمرة وبالتالي مفيدة للجنس البشري المتحضر ، ولذلك يقع على عاتق الشعوب الاكثر تطورا وتحضرا (والمعنى هنا الشعوب الاوروبية) مسؤولية تعمير تلك الارض واستخدامها لصالح الجنس البشري ومن هنا جاءت تسمية المستوطنين الاوروبيين بـ (المعمرين) وخاصة في الجزائر .

هـ ـ مفهوم الفراغ : ومفادها ان البلدان خارج اوروبا هي فارغة ولا بد من ملء الفراغ فيها . حيث لم يقصد به بشريا بل حضاريا . ومفهوم الفراغ في علم السياسة هو استعماري بالاصل ، وما زالت تستخدمه بعض الدول كحجة للاحتلال والسيطرة ومثال على ذلك

الشعار الصهيوني المعروف « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » وكذلك مبدأ ايزنهور عام ١٩٥٧ ، الذي اعلن بقصد ملء الفراغ في الشرق الاوسط الذي نجم حسب ادعائه عن خروج بريطانيا وفرنسا من تلك المنطقة .

و ــ وقد اضافت الصهيونية الى ترسانة المفاهيم الاستيطانية الاستعمارية مفهوما جديدا في شكله وقديما في جوهره وهو مفهوم معاداة السامية « اللاسامية » الذي جوهره تبرير الانغلاق وادامة عزلة المستوطنين سواء قبل الهجرة او بعد تحقيقها .

خصائص المجتمعات الاستيطانية قبل تحويلها الى مجتمعات عادية

اذا كنا قد لاحظنا ثلاثة نماذج اساسية من حالات الاستعمار الاستيطاني اولها الذي نجح في تحويل مجتمعاته الى الطور العادي والثاني الذي فشل نهائيا واندثر والثالث الذي ما زال يراوح مكانه بين الفشل والنجاح ، فاننا نستطيع على ضوء تجربة تلك النماذج تلمس ثلاثة عوامل رئيسية وقفت وراء ذلك النجاح او الفشل او المراوحة بينهما . حيث تكمن هذه العوامل في :

أ ــ القدرة او عدمها على تغييب المجتمع الاصلي الذي يشكل الطرف النقيض الاساسي لجماعة المستوطنين .

ب ــ وجود او عدم وجود محيط اقليمي منازع للكيانات الاستيطانية بحكم المصلحة المادية او الروابط الروحية مع المجتمع الاصلي لاقليم الاستيطان .

ج ــ وجود اطار دولي داعم او معارض للكيانات الاستيطانية طبقا للمصلحة ايضا .

وما دام النموذجان الاول والثاني قد انحسم امرهما فاننا ما زلنا نواجه النموذج الثالث الذي يفرض نفسه علينا بحكم الواقع ويستدعينا لمعرفته والنفاذ لجزيئاته الداخلية وارتباطاته الخارجية لما لهذه المعرفة من اثر على ممارستنا العملية في حقله .

ان كون الكيانات الاستعمارية الاستيطانية في كل من جنوب افريقيا وفلسطين في حالة صراع دائم ومستمر مع السكان الاصليين في هذين القطرين ومع الوسط الاقليمي لكليهما هذا من جهة ولكونهما غير قادرتين على مواصلة ذلك الصراع بمفردهما ودون عون القوى الاستعمارية التي اوجدتهما كاداة لفرض هيمنتها على ذلك الوسط من الجهة الاخرى فانهما سيبقيان يحتفظان بخصائصهما الاستيطانية ولن يستطيعا التخلص من هذه الخصائص الا بعد حسم امرهما لصالح النجاح او الفشل .

فاستمرار الصراع وتامين متطلباته تحول بالضرورة دون وصول هذه الدول الى طورها العادي وبالتالي يوطد خصائصها الاستيطانية ويعمقها ولهذا فان معرفة هذه الخصائص سواء فيما يتعلق ببنية نظمها الداخلية او بارتباطاتها الخارجية تتمتع باهمية خاصة ، وذلك لانها تتيح فهم آلية تجددها الذاتي من ناحية ومواصلة تحقيق مصالح القوى الداعمة لها من ناحية اخرى .

وتنبع هذه الخصائص من الطبيعة الجوهرية المميزة للمجتمعات الاستيطانية المتمثلة في ضرورة تصفية المجتمع الاصلي وما يتطلبه ذلك من حتمية تدفق المهاجرين المستمر واستلاب المزيد من الاراضي . فاستمرار هذه العملية يشكل القاعدة المادية للتناقض الاساسي بين الجماعة الاستيطانية والسكان الاصليين . ذلك التناقض الذي يؤثر بدوره على بنية ووظيفة مختلف اطراف الصراع ويطبعها بطابعه المميز كما يشكل المحدد الرئيسي لمستقبل التحولات المرتبطة بهذه الانظمة وامكانية انتقالها الى طور المجتمعات العادية او فشلها .

ونظرا لضيق الوقت سنتعرض هنا بايجاز لخصائص كل من البنية الاجتماعية الداخليــة والارتباطات الخارجية لنظامي جنوب افريقيــا والكيان الصهيوني .

اولا : خصائص البنية الداخلية للانظمة السياسية الاستيطانية :

١ ــ خصائص النظام السياسي :

يتميز النظام الســياسي للدول الاستيطانية بالازدواجية . فهو مــن ناحية اولى ينطوي على علاقات ديموقراطية ليبرالية في محيط المستوطنين ومن ناحية ثانية ينطوي على علاقات استعماريــة تجــاه اصحاب البلاد الاصليين الذين بقوا تحت سيطرته .

واذا كانت هذه الازدواجية السياسية تعبر في حقيقة الامر عــن مصلحة المستوطنين الاقتصادية بحيث تهدف الى استغلال الوطنيين كأيدي عاملة رخيصة فان هــذه السياسة تجد تبريرهــا الفكري في الايديولوجية العنصرية وما تعززه من قيم العزل والتفرقة والتميز وذلك بجعل الســكان الاصليين اما مواطنين من الدرجة الثانيــة او غرباء في بلادهــم .

اما فيما يتعلق باعتماد النظام الســياسي الليبرالي فانه شكلي للغاية ومجرد تعدد كمي في القوى والمؤســسات السياسية ذات المنشا غــير الديموقراطي لان مصالح ورغبات السكان الاصليين الذين كانوا اغلبية في بداية الامر لم توضع مطلقا في الاعتبار اثناء الاقتراع . ولم يحدث يوما استفتاء او تقصي للرغبات او اي اجراء ديموقراطي اخر سواء مــن الدولــة المستعمرة او منظمة دولية لمعرفــة رغبات السكان الاصليين واعطائهم فرصة لتقرير مصيرهم بانفسهم . وكل ما هنالك ان الجماعات الاستيطانية بشكل عام قد اعتمدت على دعاوى مثل الحقوق (التاريخية ــ الدينية ــ الحضارية ــ العنصرية) .

وان مثل هـذه الدعاوى لا يمكن ان تكون بديلا ديموقراطيـا عن صناديق الاقتراع من وجهة ليبرالية على الاقل . ومن المثير للتسـاؤل ان غياب الديموقراطية الحقة في هذه الانظمة لا ينحصر في ماضيها وحسب بل ينطبق على حاضرها ايضا حيث يعامل السكان الوطنيين كغربـاء ويحرمون من ابسط الحقوق الانسانية ويلاحظ ان التوجهات العنصرية واللا علمانية والقمعية تزداد تأكيدا وعمقا مع الزمن نتيجة لتصميم الجماعة الاستيطانية المسيطرة على الاحتفاظ بامتيازاتها ونفوذها لدرجة يصبح معها التمييز والقمع جزءا لا يتجزأ من طبيعة هذه الانظمة ، حيث ان ظاهرة العنصرية لا تبقى على مستوى فردي بل تأخذ شكلا مؤسسـا مقننا وتصبح جزءا من الثقافة الرسمية يتشربها الطفل خلال تنشئته الاجتماعية بدءا من الاسرة والمدرسة وباقي عناصر البيئة الاجتماعية كالاحزاب السياسية وإنتهاء بالدولة .

٢ ـ خصائص النظام الاقتصادي :

يتميز النظام الاقتصادي لهذه الدول بالخصائص التالية :

أ ـ ظاهرة الثنائية الاقتصادية . ونعني تعايش نمطين مختلفين من انماط النظم الاقتصادية المتقدمة منها والمختلفة معا وفي نفس الوقت .

فنظرا لتفوق اقتصـاد المستوطنين باعتباره امتـدادا للاقتصـاد الراسمالي المتطور من النواحي المالية والتكنولوجية على اقتصاد الوطنيين المتخلف الذي يعتمد على اساليب وعلاقات انتاج ما قبل الراسمالية ؛ لهذا فقد تعرقلت عملية النشـوء والتطور سـواء للاقتصاد او للفئات الاجتماعية المرتبطة به من السكان الاصليين .

ولا يتعلق الامر هنا بعمليات استلاب الاراضي والسيطرة عليها فقط بل باعتماد سياسة « العمل الابيض فقط » في جنوب افريقيا و « العمل اليهودي فقط » في فلسطين وهذا يعني ان المستوطنين لم يستحوذوا على

ملكية الارض فقط بل وعلى العمل فيها ايضا ، حيث جرى طرد الفلاحين العاملين فيها توارثا منذ الاف السنين . وبهذا حرموا حتى من مجرد التحول الى عمال في الاقتصاد الاستيطاني سواء في الزراعة ام الصناعة .

وهكذا فان تطور الاقتصاد الاستيطاني لم يعق نشوء طبقة برجوازية وحسب بل وبرولتيارية ايضا بين صفوف اصحاب البلاد الاصليين .

واذا كان الاقتصاد في جنوب افريقيا بعد اكتشاف الماس والذهب فيها قد تطلب ضرورة عمل الشعب الافريقي في المناجم بصفة خاصة محولا اياه الى برولتيارية ملحقة بطبقة « السادة البيض » فان ذلك قد جرى وما زال يجري ضمن سياسة العزل والتفرقة والاستثمار حيث انهم آخر من يعينوا واول من يفصلوا . وما تشغيلهم الا نتيجة للحاجة الماسة لقوة عملهم . اما بالنسبة للصهاينة في فلسطين فقــد اضطروا للالتحاق بهذا الاتجاه بعد عدوانهم على الدول العربية في يونيو عام ١٩٦٧ ، واحتلالهم لاراض شاسعة جديدة حيث ارغموا بحكم حاجتهم الى تشغيل اليد العاملة العربية . وهكذا بفضل وضعهم المتميز يتمتع المستوطنون في كل من جنوب افريقيا وفلسطين المحتلة بمستوى المعيشة الاوروبية ويعملون في اطار اقتصادي حديث ومعقد بينما الشعبين الفلسطيني والافريقي يعيشون على هامشي الاقتصاد الاوروبي السائد في اطار اقتصاد متخلف ومتأخر وكان هذه الثنائية هي امتداد للثنائية السائدة في النظام الرأسمالي عامة حيث هنالك في اطاره البلدان المتطوره والبلدان المتخلفة مع وجود سمات معينة في حالة الاستيطان حيث يتم ذلك ضمن نظام اكثر قسوة وقمعا لابسط المظاهر الانسانية .

ب ـ ظاهرة التبعية الاقتصادية الحتمية للنظام الرأسمالي العالمي . ان انفصال دولة المستوطنين الاداري لم يغير من طبيعة الروابط والعلاقات الاقتصادية مع الدولة الام فمسألة التبعية هنا التي تواجه (اسرائيل) وجنوب افريقيا لسيت من النوع التي ترتبط فيه بعض البلدان المتخلفة اقتصاديا بالامبريالية نتيجة لسيادة طبقات اجتماعية معينة ذات مصلحة

مادية في هذه التبعية التي ستزول حتما بزوال سيادة هذه الطبقات ذات المصالح المتعارضة مع مصالح شعوبها بدليل ان كثيرا من هذه البلدان استطاع التخلص من علاقـة التبعية تلك وانجاز مرحلـة الاستقلال الاقتصادي والسياسي في حين ان النظامين المذكورين مهما بذلا من جهود لتحقيق الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي فان ذلك يتم حتما في اطار التبعية المطلقة للنظام الراسمالي لانه يتمّ ضمن هذا النظام وليس خارجه فأي خروج من دائرة هذا النظام تعني بالضرورة انتهاء الطبيعة الاستيطانية لهذه النظم شكلا ومضمونا بما يعني ذلك من تغيير في بنية المجتمع ككل وفي طبيعة علاقاته بالسكان الاصليين .

ان رسما بيانيا لتطور اقتصاد هذين النظامين يوضح بشكل قاطع الزيادة المستمرة في تعميق تلك التبعية وليس في انفكاكها حيث يبرز هنا بشكل خاص دور الشركات المتعددة الجنسيات . هذا كما يلاحظ ان كلا من النظامين شأنهما كشأن الدول الاستيطانية الاخرى السابقة لهما قد التزمت في برامجها التنموية بأساليب وقيم النظام الراسمالي باعتبارها امتدادا له يطرق اكثر عنفا وقسوة لدرجة حملت معهـا كاتب مـادة « العلاقات العنصرية » في الموسـوعة الدولية للعلوم الاجتماعيـة الى القول : « ان عهد العلاقات العنصرية انما بدا في التبلور والوضوح مع توسع الدول الاوروبية الكبرى فيما وراء البحار منذ القرن التاسع عشر فصاعدا » . كما يشير الى ان الصهيونية السياسية واراء المصلحين المسيحيين بدات تزدهر هي الاخرى في ذلك الوقت بحيث ان العقائد والاساطير التي رافقتها كانت مجرد رموز للامبريالية والعنصرية العالمية اللتين اكتمل نموهما في اواخر القرن التاسع عشر . هذا ويؤكد مؤلف مادة « الاجناس » في الموسوعة البريطانية الجديدة انه « ليس مـن المصادفة ان تزدهر العنصرية في الموجة الكبرى الثانية مـن التوسع الاوروبي الاستعماري والتزاحم على افريقيا ..... ان الايديولوجية الاستعمارية غالبا ما كانت تتجلى بلغة عنصرية » .

ومعنى هذا بوضوح ان العنصرية قد ازدهرت اساسا مع ازدهار الراسمالية خلال مرحلة توسعها الاستيطاني وان هذه العنصرية قد استمدت اسسها من المصالح الاقتصادية للمستوطنين اكثر من الاعتبارات الايديولوجية وبمعنى اكثر دقة ان النظم والعلاقات العنصرية التي سادت وما زالت سائدة على اساس اللون او الدين انما جرى اعتمادها اصلا من قبل المستوطنين لتدعيم نمط الانتاج الراسمالي في ظل ظروف النظامين اكثر منه لحماية مصالح العناصر الاستيطانية في حد ذاتها على الرغم من ان هذه المصالح العنصرية للمستوطنين تتوافق مع المصالح الراسمالية في النظامين وهذا هو سر الدعم اللا محدود من قبل الدول الراسمالية الكبرى لهذين النظامين .

اما فيما يتعلق بنموذج التنمية الاقتصادية التي اتبعته هذه النظم فانه يقوم على مبدأ « الاستزراع الاقتصادي » حيث يتم نقل حجم سكاني بكل اعداده وراسماله ومهاراته ومعارفه الفنية والسوق الذي يمثله من مكان الى آخر بمعنى نزع مكونات اقتصاد من مكان واعادة تركيبها في مكان آخر على حد تعبير بعض الباحثين .

ج ـ ظاهرة عسكرة الاقتصاد : ـ ان اعتماد نظم ومفاهيم اقتصاد الحرب في هذه النظم ينبع اساسا من حالة الحرب المستمرة بينها وبين السكان الاصليين والوسط الاقليمي المحيط لتثبيت وجودها عن طريق فرض الامر الواقع بالقوة وتحقيق اهدافها في استمرار التوسع الاقليمي. فتثبيت الوجود الاستيطاني وتوفير الامن له خلال مراحله المختلفة قد تتطلب تحقيق شرطين ذاتيين اساسيين :

اولهما : خلق جيش استيطاني متقدم كماً ونوعا ومسلح باحدث اساليب وادوات التقدم الفني والتكنولوجي وتفصله عن جيوش الدول المحيطة فجوة تكنولوجية وتنظيمية واسعة بحيث يكون قادرا على فرض وجود دولة المستوطنين وتحقيق اهدافها في التوسع .

وثانيهما : خلق اقتصاد استيطاني يتمتع بدرجة عالية من التقدم الفني والتكنولوجي وقادر على تحقيق مستوى مرتفع من المعيشة للمستوطنين .

ان الالتزام بمنهج « إقتصاد الحرب » و « عسكرة المجتمع كله » تعبير عن حقيقة الدولة الاستيطانية الجوهرية المتمثلة في بناء مجتمع المستوطنين الاصطناعي بالقوة والاغتصاب ، ومن ثم حتمية تحويل هذا البناء الى قلعة مسلحة في وجه السكان الاصليين ومن يساندهم . فاعتماد سياسة القوة والحرب لا ترتبط بدوائر معينة في مجتمع المستوطنين او بفئات متطرفة من بينهم كما يتوهم البعض بحيث يمكن تغيير تلك السياسة بتغيير هذه الدوائر والفئات بل هي موقف كلي ينبع من طبيعة الوجود الاستيطاني ذاته ويعبر عن جوهره وشروط استمراره .

٣ ـ خصائص البنيان الاجتماعي :

تتميز بنية المجتمعات الاستيطانية ببعض السمات الجوهرية النابعة من ظروف نشأتها وتطورها . ومن بين أهم تلك الخصائص ما يلي :

ا ـ أولوية التمايز الاستيطاني على التمايز الطبقي . يكاد يتفق معظم علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد على وجود صلة وثيقة بين بنيات المجتمعات الطبقية في اية مرحلة من تطورها ووضعها الاقتصادي في تلك المرحلة .

واذا كانت هنالك ثمة خلافات فيما بينهم بهذا الصدد فانها تدور في غالب الاحيان حول درجة تأثير تلك الاوضاع على كيفية نشوء وتبلور تمايز مصالح واوضاع تلك الطبقات وطبيعة العلاقات التي تنشأ بينهما وعملية التغييرات التي تطرأ عليها ، ويسود اجماع على ان البنيات الطبقية للمجتمعات العادية قد تبلورت عبر مسيرة طويلة من التطور التاريخي شهدت خلالها سلسلة من التغيرات المتعاقبة بفعل تناقضاتها

الخاصة بها والتابعة من أسلوب معيشتها ؛ بحيث تشكل اطراف التناقض الاساسي على الدوام من داخل هذه المجتمعات بين من يملكون وسائل انتاج الخيرات المادية وتوابعها وبين من لا يملكون هذه الوسائل .

ولكن رغم وجود حالة الانشطار الداخلي لكل مجتمع على حدة الا ان ضرورة استمرار وجود هذه المجتمعات قد تطلب نشوء علاقة حتمية لا غنى عنها بين طرفي التناقض الاساسي كشرط لقيام واستمرار الوحدة الاجتماعية من جهة ولحاجة كل منهما للاخر ضمن تلك الوحدة من جهة اخرى لان وجود كل منهما يشترط وجود الاخر على الرغم من حالة التناقض القائمة بينهما طبقا لقانون وحدة وصراع المتناقضات ، ومع ان الصراعات الاجتماعية المتعاقبة داخل المجتمعات العادية قد تأثرت أو قل انبثقت من ارضية التناقض الاساسي الداخلي الا ان نتائج التغيرات التي حدثت او ما زالت منتظرة الحدوث لا تمس او لا تنفي الوجود الفيزيائي للبشر المتواجدين في اطراف التناقضات الاجتماعيـة المختلفة بل علاقاتهم وما يترتب عليها من اوضاع اجتماعية متباينة اي ان هدف الصراعات الاجتماعية هو نفي علاقات قديمة واستبدالها بعلاقات جديدة افضل منها .

وهكذا نرى أن البنيان الطبقي في المجتمعات العادية يتميز بالوضوح بين طبقات المجتمعات العادية قد شكلت الاساس المادي لعملية استقطاب القوى الاجتماعية وصراعها السياسي عبر التاريخ وان كانت تبرز احيانا التناقضات الخارجية لتاخذ دور التناقض الرئيسي الا ان ذلك يكون لفترة زمنية محددة ومؤقتة لا تلبث الامور ان تعود الى مجراها الطبيعي حيث تحتل التناقضات الداخلية مركز الصدارة .

وهكذا نرى ان البنيان الطبقي في المجتمعات العادية يتميز بالوضوح مما يساهم في خلق امكانية نشوء وعي طبقي يؤثر بدوره على مجرى عملية التغير الاجتماعي نحو ازالة الطبقات الاجتماعية مستقبلا واقامة مجتمعات لا طبقية .

أما فيما يتعلق بالمجتمعات الاستيطانية فاننا هنا ازاء وضع غير عادي حيث يفتقر فيه المستوطنون ليس الى الرابطة التاريخية بارض الاستيطان وبسكانها وحسب بل وببعضهم البعض . فليس هنالك ما يجمعهم في حقيقة الامر سوى مصلحتهم المادية المشتركة في السيطرة على الاقليم الجديد واستلاب ارض سكانه الاصليين وتغييبهم قسرا بالابادة الجسدية او التهجير او ابقائهم مؤقتا في معازل جغرافية الى ان يحين وقت الخلاص منهم بالطرق المناسبة .

فالمستوطنون في هذه الحالة ليسوا مهاجرين غرباء فقط او ذوي دين او لون او عرق معين . فلو اقتصر الامر على وجود احد هذه الصفات او مجموعها لديهم ثم اندمجوا عند وصولهم كافراد في حياة المجتمع الاصلي وتفاعلوا معه ضمن عملية الانتاج القائمة على نظام التملك السائد وما يرتبط به من بنى فوقية وتحتية لتغيرت النتائج الاجتماعية السياسية لهذا التفاعل تماما . لانه في مثل هذه الحالة سيكون التمايز الاجتماعي هنا ، كما هو عليه الحال في المجتمعات العادية الا ان المستوطنين انشأوا مجتمعا قائما بذاته منغلقا على نفسه ، متميزا عن مجتمع السكان الاصليين ومتعارضا معه في المصالح والاهداف بحيث ان عملهم على خلق شروط وجود مجتمعهم وتطوره قد مر بالضرورة من خلال انهاء شروط وجود المجتمع الاصلي ماديا وروحيا . وهذا يعني انه مع بداية علاقة المستوطنين بالارض الجديدة بدأت نهاية علاقة السكان الاصليين بها ، اي ان التطور المادي والروحي لمجتمع المستوطنين المتميز اشترط بالضرورة اضمحلال المجتمع الاصلي او تقلصه في احسن الاحوال . كما ان قدرة المجتمع الاصلي على البقاء فوق ارضه والصمود قد اعاقت تطور مجتمع المستوطنين وفي حالات معينة افشلت وجوده .

اذن فمصلحة المستوطنين في الوجود والتطور الاجتماعي المنفصل عن مجتمع الوطنيين هي القاعدة الاساسية التي انبثق منها تمايز هذين المجتمعين النقيضين وما ترتب على ذلك التمايز من استقطاب لقواهما

المتصارعة . فالمستوطنون يخوضون الصراع ليس من اجل تغيير علاقة معينة مع السكان الاصليين بل من أجل انهاء وجود هؤلاء السكان المادي والروحي .

ومن باب المفارقة نقول ان الصراع هنا لا يجري بين نقيضين داخل مجتمع واحد كما هو الحال في المجتمعات العادية بل يجري بين مجتمعين لكل منهما وحدته الخاصة اي جوهره وشكله ودرجة تطوره والذي يتميز عن الثاني بحيث ينفيه وينقضه ولا مجال للتعايش بينهما . لذلك فالتناقض الاساسي هنا تناقض خارجي وليس داخلي بالنسبة لكل منهما الامر الذي يتمخض عنه بالضرورة ــ بحكم مصلحة المستوطنين في الوجود المنفصل المتميز ــ اولوية التمايز الاستيطاني على التمايز الطبقي داخل مجتمع المستوطنين وما يتبع ذلك بالضرورة من اولوية الاستقطاب الاجتماعي الاستيطاني على الاستقطاب الاجتماعي الطبقي نظراً لغلبة المصلحة الاستيطانية على المصلحة الطبقية ولا يعني هذا ان كل المستوطنين في نفس المستوى من المعيشة او في نفس الدرجة من الاستحواذ على وسائل الانتاج او انهم يملكون بالتساوي نفس المقدار من الخيرات المادية . الا انه طالما بقي السكان الاصليين او جزء منهم في وطنهم . وطالما بقي الوسط الاقليمي يرفض الاقرار بشرعية الوجود الاستيطاني طالما ستبقى جميع انواع التمايزات والاختلافات في الاوضاع الاجتماعية داخل مجتمع المستوطنين من النوع الهامشي اي الثانوي لان تناقضهم الاساسي وما يرتبط به من صراعات سيبقى موجه ضد هؤلاء السكان ومحيطهم الاقليمي .

ب ــ اولوية الوعي الاستيطاني على الوعي الطبقي : يرى كثير من الباحثين ان تفكير المستوطنين ووعيهم لمصالحهم لا يتحدد بناء على أوضاعهم او مكانتهم الاجتماعية قبل الهجرة بل على اساس واقعهم الجديد ومصلحتهم المشتركة في القضاء على مجتمع السكان الاصليين . وحيث ان هذا الواقع نشأ وتطور بشكل منفصل ومتميز ، لهذا فاننا

نلاحظ ان جل وعيهم الاجتماعي قد انصرف لتبرير هذا الواقع وتكريسه اعتمادا على افكار ومفاهيم تمجد التمييز العنصري والتفوق العنصري للرجل الابيض وتنادي باستخدام القوة والعنف لفرض السيطرة على اقاليم الاستيطان واستئصال سكانها الاصليين تحت حجج واعية كالرسالة الحضارية او التاريخية للرجل الابيض او العودة لارض الميعاد ...... الخ .

فهذا النمط من التفكير والوعي يعكس المصلحة في الوجود الاستيطاني قبل ان يعكس المصلحة في الوجود الفئوي او الطبقي للمستوطنين حيث تتطابق هنا اولوية الوعي الاستيطاني مع اولوية التمايز والاستقطاب الاستيطاني في مجتمع المستوطنين على التمايز والوعي الطبقيين .

ويمكن تدعيم مقولة « اولوية الوعي الاستيطاني على الوعي الطبقي » بحقائق مستقاة من الاوضاع الاجتماعية والسياسية وحالات استطلاع الرأي العام ومن عمليات الانتخابات المتعاقبة في الكيانات الاستيطانية التي تدل على ان المستوطنين يسيرون باستمرار نحو اتجاهات اكثر عنفا وعداء وعنصرية للوطنيين . وان الاعتقاد بامكانية حدوث صراعات طبقية داخل المجتمعات الاستيطانية بحيث تؤدي في النتيجة الى حلول عادلة لمشكلات الشعب الافريقي والفلسطيني هو نوع من الوهم ليس الا . فهذه المشكلات لن تحل الا عن طريق استمرار الصراع وتعميقه وتفاقمه الى ان يحدث تغيير لموازين القوى ضد هذه الكيانات الاستيطانية حيث ستفرض الحلول العادلة عليها فرضا واقعيا وليس استجداء وهميا . فجميع الشواهد المتاحة في كل من اسرائيل وجنوب افريقيا توحي بعدم امكانية حدوث تفاعلات او صراعات اجتماعية « طبقية » بمعنى عدم امكانية تحالف العمال المستوطنين مع الفئات العمالية من الشعبين الفلسطيني والافريقي ضد اصحاب الاعمال المستوطنين طبقا لمقولة وحدة الطبقة العاملة ضد من يمارس استغلالها . ويلاحظ ان الفئات المسحوقة من المستوطنين تتضامن مع اكثر الاحزاب والعناصر شوفينية وعنصرية في المؤسسة الحاكمة .

فمثلا نجد في الكيان الصهيوني أن مؤيدي حزب حيروت الفاشي هم من المستوطنين المهاجرين الذين أتو من آسيا وافريقيا والمعروفين بفقرهم نسبيا .

ج ـ ظاهرة التعددية الاثنية : من بين السمات الخاصة بالمجتمعات الاستيطانية انها تتكون من خليط متنوع من الاصول الاثنية والثقافية والحضارية والجغرافية بحيث تصبح العناصر المكونة لهذه المجتمعات غير متناسبة بل واحيانا متناقضة وان كانت هذه الفئة من التناقضات تحتل مرتبة ثانوية في ظل سيادة التناقض الاساسي مع الشعوب الاصلية . ومما هو جدير بالملاحظة هنا ان التمايز الاثني يبرز على حساب اختفاء او ضعف التمايز الطبقي حيث تبدو الجماعات الاثنية كبديل جزئي عن الطبقات الاجتماعية .

ففي حالة جنوب افريقيا مثلا نجد التناقض الاثني متبلورا بصفة اساسية بين العناصر الهولندية الاصل (القومية الافريكانية) من جهة والعناصر البريطانية الاصل من الجهة الاخرى .

اما التناقض الاثني في الكيان الصهيوني فتبلور اساسا بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين حيث نجد حاخام منفصل لكل منهما ومجلس مستقل لكل طائفة الى جانب الشكل الموسع للاسرة اليهودية الشرقية في مقابلة الاسرة الضيقة جدا بين اليهود الغربيين اضافة الى وجود الاختلاف في العادات والتقاليد ومناطق السكن حتى في مستوى التعليم والمراتب السياسية والاجتماعية .

وكذلك الامر في جنوب افريقيا حيث توجد كنائس منفصلة للعناصر الهولندية واخرى للعناصر البريطانية اضافة لامتداد نفس الظاهرة الى مجال الصحف والمدارس واللغات ومناطق السكن الى غير ذلك من مظاهر التباين في اشكال السلوك السياسي والتوجه الاجتماعي . الا انه يلاحظ ضغط جميع هذه التمايزات وما يرتبط بها من تناقضات ثانوية لصالح

التناقض الاساسي مع السكان الاصليين . ولهذا فان مفهوم الطبقة الاجتماعية عندما يجري استخدامه في محيط اي من النظامين المذكورين يجري في نفس الوقت تخفيف مفعوله مرتين على الاقل مما يرد الى اختلاطه بالوضع الاثني حيث الانتماء الى أصل معين في هذه النظم يترتب عليه عدة أوضاع اجتماعية اقتصادية . فمكانة السكان الاصليين هنا هي ادنى من مكانة المستوطنين بدرجتين على الاقل فالاولى بسبب الدين واللون والثانية بسبب كونهم لا يملكون شيئا في بلادهم سوى قوة عملهم التي قليلا ما تجد لها مكانا في سوق العمل الاستيطاني .

د ـ حتمية الانغلاق العنصري : كنا قد اشرنا في مواضع سابقة الى ان انغلاق المستوطنين على انفسهم وامتناعهم قصدا عن الاندماج بالسكان الاصليين يستجيب لكونهم في مجتمع منفصل متميز ومتمايز فهذا الانغلاق يثبت الانفصال والعزلة ويضمن تحقيق الامتيازات على حساب السكان الاصليين . لذلك يكون الانغلاق وسيلة وتحقيق الامتيازات هو الهدف . فالتمييز العنصري تقتضيه طبيعة البنية الاجتماعية الاستيطانية ووظيفتها الاقتصادية والسياسية لهذا فهو ينبع من جوهر هذه البنية وليس مقحما عليها من الخارج بحيث لا يمكن فصل هذا التمييز عن تلك البنية طالما بقي الشعب الاصلي متواجدا على ارضه . والعنصرية لا تنحصر في مجرد افكار بل تتجسد في ممارسات المستوطنين اتجاه السكان الاصليين من خلال مؤسسات وقوانين ترعاها الدولة الاستيطانية بشكل رسمي . وبغض النظر عن التسمية لوصف هذا التمييز فهو موجه لفصل المستوطنين عن السكان الاصليين .

ثانيا ـ خصائص الروابط الخارجية : تتميز الروابط الخارجية للمجتمعات الاستيطانية عن مثيلاتها من الروابط في المجتمعات العادية بخصائص جوهرية اهمها :

١ ـ حتمية الارتباط بدولة ام :

كنا قد اشرنا الى ان الظاهرة الاستيطانية المعاصرة جزء عضوي من الظاهرة الاستعمارية بشكل عام والتي انبثقت من عملية التوسع الاستعماري الاوروبي في بلدان ما وراء البحار ، بمعنى ان نشأة الكيانات الاستيطانية جاءت امتدادا لتطور الاوضاع الاقتصادية والسياسية في المجتمعات الاوروبية على قاعدة النظام الرأسمالي بحيث ان كل كيان استيطان قد ارتبط منذ نشأته بدولة اوروبية معينة دعيت اصطلاحا « الدولة الام » ، وقد كانت هذه الدولة احيانا هي بلد الاصل بالنسبة للمهاجرين او لاغلبيتهم العظمى كما هو الحال بالنسبة لاستراليا وكندا والولايات المتحدة حيث تعتبر بريطانيا هي الدولة الام لان اغلبية المهاجرين كانوا ينتمون الى اصول انجليزية واسكتلندية كما اعتبرت دولة الام احيانا تلك التي امنت الحماية السياسية لعملية الاستيطان سابقا ولدولة المستوطنين لاحقا كما هو الحال بالنسبة (لاسرائيل) حيث لعبت بريطانيا دور دولة الام في المرحلة الاولى والولايات المتحدة الامريكية في المرحلة التالية .

فالحماية هنا عنصر هام بحكم تصادم مصالح الجماعات الاستيطانية مع مصالح السكان الاصليين وضرورة حصول المستوطنين على دعم خارجي بشكل مستمر ومضمون .

وهو ما يعني ان هذه الرابطة ليست مجرد رابطة اثنية او دينية بل ترتكز الى اعتبارات سياسية وامنية للطرفين .

فحالة العزلة والمقاطعة التي يعيشها الكيان الاستيطاني على المستويين المحلي والاقليمي اضافة الى ظاهرة الانفصال الحضاري والتاريخي والتكنولوجي والديني تدفع الدول الاستيطانية الى الارتباط بشعب آخر او بمنطقة جغرافية اخرى او باحدى الدول لتكون بمثابة « الوطن الام » لان الدول الاستيطانية هي خارجة على تاريخ وجغرافية

الوسط الاقليمي رغم ان هذه الدول حقيقة واقعة في هذا الوسط . فمثلا تقع دولة جنوب افريقيا فعلا في افريقيا ، ولكن وجودها هذا بمثابة امر واقع فقط . ولا يمكن وصفها بانها افريقية لكونها ليست جزءا عضويا من تاريخ هذه القارة او تكويناتها الاجتماعية ، ونفس القياس ينطبق على (اسرائيل) فهي وان كانت تقع فعلا في الوطن العربي الا أن تاريخهـا وتكوينها الاجتماعي لا يرتبط بالوطن العربي ومجتمعاته في شيء يذكر سوى بالعدوان والتوسع نظرا لكونها امتداد لمصالح الدول الاستعمارية في هذا الوطن . لهـذا يمكن القول ان الوجود الاجتماعي الاستيطاني المنفصل ذو علاقة ميكانيكية بالوسط المحلي والاقليمي، وذو علاقة عضوية بالوسط الاستعماري العالمي . فالدولة الاستيطانية بمثابة قلعة عسكرية متقدمـة يصعب تحديها من قبـل السكان الاصليين والبيئة الاقليمية المحيطة بها .

فهذه النظم تجد التدعيم المادي والمعنوي المستمر من قبل الاستعمار التقليدي والجديد ، باعتبار ان هذه الدول من ابرز ادوات صيانة المصالح الاستعمارية العالمية في المناطق التي زرعت فيها .

٢ ـ ضرورة العدوان لتحقيق السيطرة وفرض التسوية :

ان تحقيق هدف المستوطنين في السيطرة على الاقليم يفترض مقدما العدوان باستخدام القوة والعنف منذ البداية . فقمة العدوان تتمثل في ابادة السكان الاصليين واستلاب اراضيهم بقوة السلاح . ولم يكن بوسع المستوطنين اصـلا تحقيق اهدافهم خارج نطاق العـدوان الاستعماري سواء كان ذلك من قبل الدولة الاستعمارية او من قبل المستوطنين .

فالعدوان هنا ضرورة يقتضيها هدف اقامـة مجتمع المستوطنين المتميز المنفصل وتثبيت وجود ذلك المجتمع على حساب السكان الاصليين باعتباره أمر لا بد منه نظرا لكون المشروع الاستيطاني في اساسه عدواني قائم على انكار حقوق الوطنيين في العيش الآمن على ارض وطنهم . هـذا

من الجهة الاولى . أما من الناحية الثانية فالعدوان هو اداة المستوطنين في فرض التسويات الاقليمية على البلدان المجاورة وارغامها على القبول بشرعية الكيانات الاستيطانية . وما الحرب التي شنتها اسرائيل ضد الدول العربية المجاورة واحتلال قسم من اراضي بعضها واستخدام تلك الاراضي كوسيلة لفرض التسوية كما حدث مع مصر الا دليلا على ذلك .

٣ ـ حتمية ربط التسويات الاقليمية بالهيمنة الامبريالية :

يلاحظ من خلال الصراعات المستمرة بين النظامين الاستيطانيين في كل من جنوب افريقيا وفلسطين ومحيطهما الاقليمي ان هذه الدول اذ تحصل على مساعدات عسكرية واقتصادية وتكنولوجية متصاعدة الحجم ومتطورة النوع من قبل الدول الامبريالية انما من اجل استخدامها في تطويع ذلك المحيط ، واخضاعه لهيمنة أصحاب تلك المساعدات اضافة الى تصعيد قمعها ضد شعب الاقليم .

فهذان النظامان يستعملان تفوقهما العسكري والتكنولوجي لاحتلال اراضي جيرانهما ومقايضة تلك الاراضي بثلاث امور رئيسية متمايزة الشكل ومترابطة الجوهر ، بحيث تصب اخيرا في طاحونة الامبريالية .

اولهما : ذاتي يتعلق بوجود هـذه النظم حيث تستخدم الاراضي المحتلة كوسيلة تجبر بواسطتها الدول المجاورة على الاقرار بشرعيتها ووجودها الاستيطاني والخروج من دائرة الصراع معها بما يعني ذلك الخروج من معنى واسع ، كانهاء حالة الحرب معها وتطبيع العلاقات التجارية والثقافية والسياسية معهـا . وكذلك الامتناع عن مساعدة الحركة الوطنية لشعب الاقليم صاحب العلاقة ، بل وتصفية تلك الحركة اذا امكن .

وثانيهما : ويتعلق بضرورة اخضاع هؤلاء الجيران لهيمنة القوى الاستعمارية التي تزود مجتمع المستوطنين بكل اسباب البقاء والقوة .

وثالثهما : ويتعلق بضرورة اضعاف العلاقات او قطعها بين الدول المجاورة ــ اطراف التسوية ــ مع الدول الاشتراكية واطراف حركة التحرر الوطني ، كما حدث عند عقد اتفاقات كامب ديفيد ، والاتفاقات بين جنوب افريقيا والدول المجاورة وخاصة انغولا وموزمبيق حيث اشترط عليهما اخراج القوات الكوبية ووقف مساعدة حركة سوابو والمؤتمر الوطني الافريقي وضرورة منعهما من استخدام اراضي تلك الدول المجاورة .

فحتمية ربط التسويات الاقليمية بالهيمنة الامبريالية وضرورة تصفية نشاط الحركة الوطنية لشعب اقليم الاستيطان ملازمة للتسويات التي تتم في ظل موازين القوى الراجحة للنظم الاستيطانية . إذ اشتراط كل الدول الرأسمالية دون استثناء سواء الولايات المتحدة الامريكية او دول اوروبا الغربية واليابان ، وكذلك كثير من الدول العربية وخاصة نظام مصر على منظمة التحرير بضرورة الاعتراف بشرعية الوجود الصهيوني والهيمنة الامريكية كمقدمة لامكانية اعتبارها كطرف قابل للتفاوض معه ، لدليل على صحة هذا الاستنتاج .

خصوصية الاستعمار الاستيطاني في فلسطين :

يتفق معظم الباحثين والمفكرين السياسيين على ان هدف استغلال الثروات الطبيعية كان من بين أهم الاسباب التي ادت الى اختيار بعض الاقاليم المستعمرة لتكون موضوعا للاستيطان .

اما بالنسبة لفلسطين فيؤكدون ان موقعها الجغرافي الاستراتيجي عالميا واقليميا كان السبب الرئيسي في ذلك الاختيار من قبل الدول الاستعمارية ، وخاصة بريطانيا صانعة الصهيونية وراعيتها .

فثروات فلسطين الطبيعية المتواضعة ومساحتها الصغيرة جدا لم تجعل منها مكانا جذابا للاستغلال والربح الرأسماليين او مكانا للعيش الهادىء الراغد . وقد ظهر ذلك بوضوح عندما كانت اكثرية الصهاينة

السـاحقة المهاجرة من أوروبا تتجه الى الولايات المتحدة وكندا وليس الى فلسطين ، سواء كان ذلك قبل الانتداب او خلاله او حتى بعد قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ .

هذا من الجهة الاولى اما من الجهة الثانية فيلاحظ تاريخيا ان جميع حالات الاستيطان الاستعماري السابقة على فلسطين قد تمت في وقت تمتع فيه النظام الرأسمالي بالسيادة الكاملة على العالم ، بحيث كانت آفاق تطوره واسعة جدا ، لا تحدها حواجز اللهم بعض الازمات الدولية التي كان يجتازها كل بضع سنوات .

لهذا كان الاطار الدولي لمجموع العمليات الاستيطانية ــ باستثناء فلسطين ــ رأسماليا محضا ، وان كانت قد انجزت في مراحل مختلفة من تطور ذلك الاطار . كما ان الدول التي شكلت هذا الاطار كانت في مجموعها اوروبية ، علما بأن الولايات المتحدة واليابان بدأت تدخل تدريجيا الى مجال الفعل في هذا الاطار خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر على وجه التقريب في حين ان الاستعمار الاستيطاني في فلسطين اخذ يتكون على اساس تعاقد ملزم بين الدول الامبريالية ــ دمج صك الانتداب بوعد بلفور عام ١٩٢٢ ــ بعد ان دخل النظام الرأسمالي العالمي في ازمته العامة ، اي بعد ان خرجت من قبضته مساحة قدرها سدس الكرة الارضية بفعل ثورة اكتوبر الاشتراكية .

وعلى اثر ذلك اخذ مستقبل وجود النظام الرأسمالي العالمي كنمط لعلاقات الانتاج (علاقات التملك) يوضع على بساط البحث من قبل الحركة العمالية في البلدان الصناعية المتطورة الذي اخذ نشاطها يزعزع سلطة البرجوازية وسيادتها وخاصة في اعقاب الحربين العالميتين الاولى والثانية

وهكذا نرى ان نشوء الاستعمار الاستيطاني في فلسطين قد بدأ بالتكون الفعلي بعد دخول الرأسمالية ازمتها العامة المزمنة (اي عدم

قدرتها على الخلاص منها) حيث اكتملت المرحلة الاولى من هذا التكون بعد دخول الراسمالية المرحلة الثانية من ازمتها العامة في اعقاب الحرب العالمية الثانية بعد ان تحولت الاشتراكية من نظام لبلد واحد فقط الى نظام لمجموعة دول . كما دخلت شعوب البلدان المستعمرة والتابعة مرحلة جديدة في تطورها نحو التحرر والاستقلال ، عندما نهضت حركة جبارة في كل من آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية بما في ذلك الوطن العربي ، حيث لعبت مصر عبد الناصر دورا بارزا في هذا المضمار ضد شكل الاستعمار القديم ممثلا بالنفوذ الفرنسي والبريطاني .

وبناء على ما تقدم نستنتج ان موقع فلسطين الاستراتيجي عالميا واقليميا وكذلك تواضع مساحتها الجغرافية وثرواتها الطبيعية بالاضافة الى تاخر زمن الاستيطان الصهيوني ، حيث ترافق مع هبوط الراسمالية وليس مع صعودها اي مع مرحلة دفاعها وليس مع مرحلة هجومها . كل ذلك فرض بالضرورة على الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ان ياخذ طابع القاعدة العسكرية اي الثكنة التي تتطلب الانفاق عليها من الخارج وغير قادرة ان تعيل نفسها وتدافع عن وجودها واستمراره بنفسها لان ذلك يخرج عن حدود امكانيات ارض القاعدة التي هي امتداد لمركز خارجي بحكم طبيعة التكوين والارتباط والدور .

لهذا فزمان الاستيطان الصهيوني هو زمان هبوط الراسمالية في طورها الامبريالي ومكانها هو بين القواعد التي تدافع عن ذلك النظام لتبطيء حركة هبوطه .

وربما يعترض البعض قائلين ان هذا موقف فلسفي مجرد منه موقف سياسي عملي محدد ، لا يعالج كنه الوجود الاجتماعي للمستوطنين كجماعة بشرية تمارس العمل والانتاج وتقوم في داخلها علاقة بين العمل ورأس المال . مع الاعتراف ان نشاطها الرئيسي موجه ضد الشعب الفلسطيني ، فكيف والحالة هذه تحدد موقفا علميا من هذه الجماعة

البشرية يكون اساسا لممارسة ثورية فلسطينية تجاه تلك الجماعة الاستيطانية التي تغتصب وطننا وتغيبنا بالقوة عنه .

نحن هنا امام ظاهرة اجتماعية محدده زمانا ومكانا ، تركيبا وارتباطا شأنها في ذلك شأن الكثير من الظواهر المشابهة . ولسنا بحاجة لخلق نظرية كونية جديدة تستنبط وتصيغ قوانين عامة عن الوجود والحركة الاجتماعيين . فهذه النظرية وقوانينها موجودة ومعروفة للذين يهتمون بها ، وما علينا الا اكتشاف كيفية فعل هذه القوانين العامة في ظاهرة الاستيطان الاستعماري في بلادنا فلسطين ، وبمعنى آخر علينا انتاج معرفة فعل ما هو عام في حالة هذا الخاص .

فالقانون العام يؤكد ان وجود الناس الاجتماعي منذ القدم ليس هلاميا أو عديم الشكل بل ان هذا الوجود قد اتخذ اشكالا مختلفة عبر مراحل التاريخ بحيث كان لكل شكل منها جوهره الذي يميزه عن الاشكال الاخرى السابقة عليه واللاحقة له .

وتتمثل الاشكال الرئيسية للوجود الاجتماعي في التاريخ الانساني بخمسة وعيت كل منها بالتشكيله الاقتصادية الاجتماعية ، حيث جاءت متعاقبة احداها عن الاخرى وهي معروفة ولاداعي هنا لذكرها .

وفي كل تشكيلة انتظم الناس حسب تطور قواهم المنتجه الى فئات وشرائح او جماعات وطبقات واسر وعشائر وقبائل ومن بعد شعوب وأمم . وفي داخل كل تكوين اجتماعي نشأت اجهزة ومؤسسات ونظم وقواعد سلوك وتفكير وطرق لتحصيل المعيشة وتنظيم للعلاقات وخلالها .

ان الفهم المادي التاريخي للمجتمع يختار من بين كل ماتقدم ذكره من انواع للنشاط والعلاقات الانسانية داخل المجتمع الطريقة التي ينتج بها الناس وسائل معيشتهم الاولوية على ما عداها كمعيار لتحديد شكل التجمع البشري ومضمونه .

فاذا ما دققنا في الكيفية التي تمارس هذه المقولة العلمية التأثير في واقع الكيان الاستيطاني الصهيوني في فلسطين لوجدنا أن الجماعة البشرية الاستيطانية قد خلقت وما تزال تخلق شروط وجودها المادي على ارض فلسطين من خلال ثلاث مصادر رئيسه هي :

أ ـ تشكل أرض الشعب الفلسطيني المغتصبة بما فيها وما عليها من ثروات وعقارات ومجال حيوي ومناخ ، الشرط المادي الاول للوجود الاجتماعي الاستيطاني الاستعماري سواء كمصدر للعيش او كمجال طبيعي للتفاعل معه والاستقرار عليه .

ب ـ كما تشكل المساعدات والهبات المتزايدة المقدمة من الدول الامبرياليه كالمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وغيرها من الدول الامبريالية الاخرى الشرط المادي الثاني لهذاالوجود واستمراره . علما بأن هذه المساعدات والهبات هي جزء بسيط مما اغتصبته وما تزال تغتصبه هذه الدول من الطبقة العاملة في بلادهم شكل فائض قيمه بالاضافة الى كونها جزء مما نهبه ومازال تنهبه هذه الدول من الثروات المادية والبشرية للشعوب المستعمرة او التابعة اقتصاديا بحكم ارتباطها بالسوق الرأسمالية العالمية .

جـ ـ كما تشكل مساعدات الحركة الصهيونية بجميع اشكالهاوالتي يجري الاستيلاء عليها كفائض قيمة للعمل . او نهب الشعوب النامية الشرط المادي الثالث لهذا الوجود واستمراره .

ان قوائم المساعدات والهيئات الخارجية المتزايدة دوما كما ونوعا والسري منها والعلني تكشف حقيقة الطابع الطفيلي لهذا الكيان بشأن جميع أجهزة النظام الامبريالي المخصصة لقمع نقيض هذا النظام وليس للانتاج المربح في حد ذاتها بل من غيرها .

اذا كانت الامبريالية لاتستغل بشكل مباشر مجتمع المستوطنين في فلسطين بل تموله فانها تفعل ذلك من اجل استخدامه اداة لفرض هيمنتها السياسيه والاقتصاديه على الوطن العربي من خلال الحروب التي تشنها وتحتل الاراضي لمقايضتها .

ان شعار مقايضه الارض بالسلام هو شعار يزيف الحقيقة فالذي يحدث ليس سلاما بل استيبيلاماً كاملا امام الكيان القاعدة ومركز قيادتها.

ان ما جرى في مصر ليس مقايضة الارض بالسلام لانه اذا كان الجيش الاستيطاني قد انحسر ميدانيا عن سيناء فان مصر كلها سياسة واقتصادا قد وقعت باكملها تحت الهيمنة وحتى سيناء فانها تغص بمراكز الانذار المبكر التابعة لحلف شمال الاطلسي تحت اسم القوات المتعددة الجنسية . فمصر اليوم لاتملك قرارها بيدها بل انه في يد امريكا وقاعدتها الاستيطانية .

ان اخطر ما في التسويات هو اخراج الدول العربية واحدة بعد الاخرى من ساحة الصراع مع العدو ليسهل جلب المستوطنين بحجة استتباب السلام في المنطقة الامر الذي سيؤدي الى مزيد من تفريغ الارض الفلسطينية من شعبها باتجاه انهاء وجوده المادي على ارضه .

ان علاقة الجماعة الاستيطانية بالشعب الفلسطيني ليست علاقة سيطرة او استغلال لشعبنا او لطبقة واحدة منه ، انها علاقة نفي لمجتمعنا بأسره فهم لايريدون استغلال قوة عملنا وحسب بل حرماننا من بيع قوة العمل في وطننا وهذا راجع لطبيعته الاستيطانية .

ان خصوصية الكيان الاستيطاني في بلادنا قد جعلت منه طفيليا ليس علينا وحسب بل وعلى المستغلين في البلاد الاخرى من قبل الاحتكارات الرأسمالية .

ان شروط تحديد مجتمع المستوطنين لوجوده المادي يمر بالضرورة من خلال استمرار سحق شعبنا وتغييبه عن وطنه واستمرار العدوان والتوسع على حساب المحيط الاقليمي وكذلك من خلال معاداته لكل ما هو تقدمي في هذا العالم . ان هذا القول ليس من قبيل رفع شعارات لاستهواء الاخرين بل يعكس الحقيقة الموضوعية .

ان الذي يتكون في فلسطين ليست امة بل قاعدة عسكرية عدوانيـة تابعة للنظام الرأسمالي العالمي بحكم طبيعتها الدولية وليست الاقليمية منذ نشأتها . وهي لاتختلف عن قاعدة « غوانتي ناموا » في كوبا أو عن اسطول في احدى البحار سوى انها على اليابسه . ان التقسيم الاجتماعي في هذه الجماعة ليس طبقيا بل وظيفيا كما هو الحال في اي ثكنةعسكرية أو اسطول حيث يوجد الضابط والطباخ والمنظف ...... الخ ، ان الذين لايريدون رؤية هذه الحقائق انما يخدعون انفسهم فقط وليس غيرهم .

اما بالنسبة لايديولوجية المستوطنين ودينهم فما هي الامبررات العملية الاستيطان لاقناع المستوطنين وغير المستوطنـين قبـل وبعـد استيطانهم :-

ان نتائج الاستيطان على شعبنا هي مادية محضة في المقام الاول وروحية في المقام الثاني انها مصادرة ارض وطرد اصحابها وتحويل وطنهم الى آلة للعدوان والاغتصاب على اشقائهم . ومن ثم تدمير لكل الجانب الروحي في حياة المجتمع الفلسطيني انها عملية مبرمجة لانهاء الاسس المادية والروحية لوجود الشعب الفلسطيني الاجتماعي باعتباره النقيض الاساسي لوجود المستوطنين الاستعماريين الاجتماعي .

انه تناقض تشاجري لايمكن حله بالتعايش النقيض مع بقاء جوهر كل منهما ، وستبوء بالفشل كل محاولات التوفيق من اجل ذلك التعايش لان ذلك مخالف لطبيعة وجود ومتطلبات تطور كل منهما .

مداخلات

مداخلة اولى

فايز سارة

في البداية اود ان اتوجه بالشكر الى مركز الدراسات الفلسطينية في حركة « فتح » الذي نظم هذه الندوة ، كما اشكر الاخوة المشاركين في اعمالها ، وخاصة د . جورج جبور ، و د . صبري حلاوة اللذين قدما ورقتي عمل للندوة التي تحمل عنوانا من اكثر العناوين اهمية بالنسبة لوطننا العربي في صراعه مع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

وفي هذه المداخلة اود ان اشير بشكل عاجل الى القضايا التالية :

اولا : بصدد الاستعمار الاستيطاني كظاهرة ومن حيث نتائجها هناك ثلاث نماذج :

١ ـ كيانات استيطانية ترسخت واستقرت وتحولت الى دول وحازت على الشرعية الدولية كما في نموذج الولايات المتحدة وكندا واستراليا وغيرها من بلدان العالم الجديد .

٢ ـ كيانات استيطانية اخفقت محاولات اقامتها وانتهى وجودها كما في نماذج الاستيطان الاوروبي في العالم « القديم » ، وعلى نحو خاص محاولات الاستيطان الفرنسي في شمال افريقيا وفي الجزائر على سبيل المثال .

٣ ـ كيانات استيطانية لم يتحدد مستقبلها ، وهي مازالت في حالة صراع عنيف مع اصحاب الارض الاصليين وامتداداتهم القومية والعرقية كما في نموذج الكيان الصهيوني ونظام جنوب افريقيا .

وإذا كان النموذجان الاولان قد انتهيا الى نتائج مختلفة ، فان النموذج الثالث مازال قائما ، رغم ان مستقبله النهائي امر لايمكن تحديده بالرغم من ان الكثير من المعطيات الراهنة والمنظورة في المدى الممكن ، تشير الى احتمال هزيمته وجعل نهايته متماثلة مع مآل النموذج الثاني من نماذج الكيانات الاستيطانية .

ثانيا : ان ماضي وحاضر ومستقبل نماذج الكيانات الاستيطانية وظاهرة الاستعمار الاستيطاني مرتبط بالعديد من القضايا الدولية والاقليمية والوطنية ، ومن ابرز هذه القضايا : طبيعة العصر وسمات الوضع الدولي العام ، وتأثيرات القوى الدولية في ميدان الصراع العالمي والاقليمي ، وطبيعة القوى القائمة بالمشروع الاستعماري الاستيطاني واهدافها ، وكذلك طبيعة القوى المناهضة للمشروع وحجمها وقدراتها.

وفي الوقت الذي كانت فيه الراسمالية والامبريالية ـ فيما بعد ـ القوة السائدة في العالم ، كانت مشاريع الاستيطان اكثر قابلية للتحقق وانجاز كياناتها ، ولكن ظهور المعسكر الاشتراكي العالمي سبب خللا واضحا في المعادلة ، كذلك فان تباين الاهداف والوسائل لدى الدول الراسمالية وتطورها جعل موضوع الاستعمار الاستيطاني لايحوز على الاهمية ذاتها التي كان يحوزها في السابق ، عدا عن ان نهوض حركة التحرر الوطني العالمية والشعوب المستهدفة في مشاريع الاستيطان الاستعماري قد اثر بدوره تأثيرات كبيرة في مواجهة الظاهرة.

ثالثا : ان الخصائص العامة للاستعمار الاستيطاني يمكن اجمالها في:
١ ـ ان الاستعمار الاستيطاني مرتبط بتطور الراسمالية الاوروبية،

وبهذا المعنى فانه ظاهرة اوروبية في مرحلة تاريخية محددة ؛ ويحمل ابرز خصائص الاستعمار القديم .

٢ ـ وان تطور الاستعمار الاستيطاني قد حافظ على ارتباطه بالرأسمالية وتحولها الى امبريالية ووثق علاقاته مع مركزها في اوروبا وخارجها فيما بعد .

٣ ـ وان هذا النمط من الاستعمار قد ارتبط باستخدام القوة العسكرية المباشرة اولا ، ثم وسع مجالات قوته لتشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ... اضافة لاعتماده المتزايد على القوة العسكرية .

٤ ـ انه استمرار وامتداد للاصول الايديولوجية والسياسية والثقافية الاوروبية ، وفي حالات اخرى هو تطور خاص لذات الاصول ذاتها ، لاينفصل عن السياق العام لتطورها .

٥ ـ وهو يقوم على بنيان ايدلوجي عنصري النزعة توسعي الاهداف، وهو في الوقت نفسه يجاهر بانتمائه الى النظام الحر كنظام سياسي ـ اقتصادي عالمي .

٦ ـ وفي الوقت الذي يوثق فيه علاقاته بهذا النظام العالمي ، يمد جسور التواصل بين بنياته المتباعدة كما في مثال العلاقة بين الكيان الصهيوني ونظام جنوب افريقيا .

٧ ـ وهو يهدف الى اقامة بنى سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية بديلة ومغايرة للبنى القائمة في المناطق التي جعلها هدفا له بارضها وشعبها .

٨ ـ وتبعا لما تقدم ، فالاستعمار الاستيطاني له وظيفة مزدوجة: الاولى وظيفة داخلية ، والثانية اقليمية ـ دولية ؛ وهذا ماتعبر عنه استراتيجيات وسياسات الكيانات الاستيطانية .

رابعا : ان وحدة ظاهرة الاستعمار الاستيطاني ، وخصائها العامة لاتلغي الخصائص التفصيلية الذاتية لكل ظاهرة كيانية استيطانية وذلك بسبب السمات والتطور الخاصين والظروف الموضوعية المحيطة بكل مشروع استيطاني .

وفي معاينة للواقع الملوس للاستعمار الاستيطاني في كل من فلسطين المحتلة وجنوب افريقيا يمكن رؤية الخصائص العامة للاستعمار في السياسات الممارسة من قبل كليهما ضد العرب والافارقة على السواء وخاصة موضوع التمييز العنصري المتبع ضد السكان الاصليين للبلاد وامتداداتهم القومية والعرقية في الاقطار المجاورة وفي سعي كلا الكيانين من اجل الحصول على اعتراف به وبوجوده مع استمرار سياساته واهدافه ووفقا لشروطه .

وفي اوجه التمايز يمكن رؤية :

١ ــ ان نظام جنوب افريقيا يقوم على التمييز العنصري بين «البيض والسود » فيما يقوم الكيان الصهيوني على التمييز الديني بين «اليهود وغير اليهود » .

٢ ــ ان نظام جنوب افريقيا يقوم على حكم اقلية « بيضاء » مقابل اكثرية « سوداء » ، فيما يقوم الكيان الصهيوني على حكم اكثرية « يهودية » مقابل اقلية عربية .

٣ ــ ان النخبة الحاكمة في جنوب افريقيا بوصفها اقلية اكثر تماسكا من النخبة الحاكمة في الكيان الصهيوني بفعل الصراعات القائمة بين « الاشكيناز » و « السفارديم » ، حيث يشكل الاخيرون اكثرية يهود الكيان فيما تحتل الاقلية الاشكينازية موقع الصدارة في النخبة الحاكمة.

٤ ــ ان نظام جنوب افريقيا الذي يطبق سياسة عنصرية على العرق يحتل مكانة اقل اهمية في اطار الاستراتيجية العامة للامبريالية

العالمية بقيادة الولايات المتحدة بسبب العديد من العوامل السياسية والاقتصادية ، بينما يحتل الكيان الصهيوني اهمية اكبر ودورا اوسع في الاستراتيجية الامبريالية العالمية بسبب عوامل سياسية واقتصادية اخرى على الرغم من ان الكيان الصهيوني يمارس سياسة عنصرية قائمة على التمييز الديني .

٥ ــ ان ممارسات الكيانين العنصريين ورغم اتفاقها في الجوهر الايديولوجي والسياسي ، فان انعكاساتها في المجتمع الدولي ولدى الراي العام تبدو متمايزة على الرغم ان شقة التمايز اخلت في الانحسار في العشر سنوات الاخيرة بعد ان قامت عشرات من دول العالم بقطع علاقاتها مع الكيان الصهيوني في السبعينات وبعد ان اتخذت الامم المتحدة قرارها رقم (٣٣٧) لعام ١٩٧٥ ، القاضي باعتبار الصهيونية شكلا من الاشكال العنصرية ، وفي ذلك كله تماثل في موقف المجتمع الدولي من نظام جنوب افريقيا العنصري .

واستنادا الى ماتقدم اود تسجيل النقاط التالية :

ان الاستعمار الاستيطاني انما هو ظاهرة عالمية خلفتها الراسمالية وترعاها الامبريالية بالدعم والمساندة غير المحدودة .

وان الكيانات الاستيطانية تتفق في جوهر اهدافها وسياساتها العامة ، وان اختلفت عن بعضها بقليل او كثير من التفاصيل .

وان هذه الكيانات تواجه حاليا وفي المستقبل المنظور بقوى اكبر تضم المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر الوطني والشعوب المعنية والراي العام العالمي وهو الامر الذي يرسم « مستقبل » هذه الكيانات ونهايتها المحتومة .

مداخلة ثانية

الحزب الشيوعي الفلسطيني « القيادة المؤقتة »

يمكننا ملاحظة نوعين من الكيانات والدول الاستيطانية فيما يخص النشأة وتثبيت الشرعية الدولية :

النوع الاول : كيانات استطاعت ان تجتاز مرحلة الكيانات الاستيطانية الى طور الدول العادية ، ولم تعد شرعية وجودها محل منازعة : ومثلها الولايات المتحدة ، وكندا ، واستراليا وكل اقطار « العالم الجديد » .

النوع الثاني : كيانات بعضها انتهى واندثر ، بعد ان اخفق في تثبيت مشروعيته الدولية والوصول الى طور الدول العادية . والبعض الاخر مازال قائما لكنه لم يصل بعد الى طور الدول العادية حيث انه لم يستطيع ان ينال شرعية دولية كاملة ، ومازال وجوده محل منازعة كحال جنوب افريقيا والكيان الصهيوني .

يمتاز النوع الاول عن النوع الثاني في النواحي التالية :

تاريخيا : جاءت نشأة هذا النموذج وتطوره وتثبيته لمشروعيته الدولية في طور صعود الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى وتوسعها خلال القرون الماضية ، حيث كانت السيطرة الاستعمارية شاملة في العالم مما اتاح لها النمو والتطور والوصول الى طور الدول العادية دون عوائق تذكر .

جغرافيا : تقع جميع هذه الدول ذات المنشأ الاستيطاني في اقطار العالم الجديد (الامريكتين واستراليا ونيوزيلندا ...) بل ان كل دول العالم الجديد هي من هذا المنشأ ، وبالتالي فهي ليست غريبة في محيطها الاقليمي .

علاقته بالسكان الاصليين : تمت ابادة السكان الاصليين في هذه الدول ، او اذابة شخصيتهم الوطنية ضمن المجتمع الجديد بحيث لم تعد هناك قضية سياسية لهؤلاء السكان ولم يعد هناك صراع معهم ، ولا منازعة حول شرعية الدول القائمة .

اما النوع الثاني فهو على خلاف الاول ويتميز :

تاريخيا : لم يستطع تثبيت شرعيته الدولية قبل بداية القرن الحالي ، اما لانه لم يكن قد نشأ بعد كحال الكيان الصهيوني ، او بسبب استمرار الارتباط بالدولة الام والعجز عن تغييب الشخصية الوطنية للسكان الاصليين . وهو يحاول تثبيت هذه الشرعية في زمن مختلف انحسرت فيه الامبراطوريات الاستعمارية وظهر النظام الاشتراكي وتنامت حركة التحرر الوطني واتسع نطاقها ووصلت ازمة الرأسمالية والنظام الامبريالي الى اقصى درجاتها .

جغرافيا : تقع هذه الكيانات في اقطار « العالم القديم » وفي قارتي اسيا وافريقيا تحديدا ، مما جعل صراعها وتناقضها ليس فقط مع السكان الاصليين في الرقعة التي تقوم عليها ، بل مع الملايين من شعوب هاتين القارتين وخاصة شعوب المحيط الاقليمي لهذه الكيانات .

علاقتـه بالسكان الاصليين : لم تنجح هذه الكيانات في تغييب الشخصية الوطنية للسكان الاصليين ، لا بالابادة ، بسبب من طبيعة العصر ، ولا بالتذويب بحكم رسوخ الشخصية الوطنية ، وارتباط

هؤلاء السكان وتواصلهم مع الشعوب التي ينتمون اليها في المحيط الاقليمي .

وفي هذا النموذج الثاني من الكيانات الاستيطانية كانت النتيجة ان انهارت الكيانات والتجمعات الاستيطانية الاضعف كحال الجزائر ، وردوسيا ، وكينيا ... فيما ظل الصراع جاريا حول الكيانين الباقيين في جنوب افريقيا وفلسطين المحتلة ، حيث ظلت مشروعية وجود الاول غير متحققة ، ومشروعية الثاني غير مكتملة على النطاق الدولي ، وهذا الصراع آخذ في الاحتدام وهو مرشح لمزيد من التصاعد في المرحلة المقبلة .

والتمايز الحاصل بين الكيانين الاستيطانيين في كل من جنوب افريقيا وفلسطين في مسالة تثبيت مشروعية الوجود يعود الى :

اولا : بالنسبة لجنوب افريقيا :

فقد شكل الانقطاع عن الدول الام الذي اضعف الرعاية والدعم المباشر ، وبقاء السكان الاصليين داخل البلاد وارتفاع نسبتهم بشكل ساحق الى نسبة عدد المستوطنين ، عاملا معيقا لتثبيت الشرعية الدولية ، عمل في صالح القضية الوطنية للشعب الاصلي ، وادى الى سفور الوجه العنصري للكيان الاستيطاني بشكل كامل ، وبالتالي الى عزلته على النطاق الدولي .

ثانيا : بالنسبة للكيان الصهيوني :

فقد كان لما يسمى « بالمسالة اليهودية » واستغلال الصهيونية لظاهر عدم اندماج اليهود في مجتمعاتهم ، بسبب ما لحق بهم من اضطهاد او مذابح نجمت عن احتدام الصراع الاجتماعي في بلدان شرق اوروبا في القرن الماضي ، والاضطهاد الذي تعرضوا له في فترة صعود

النازية الصهيونية ، وتصويرها لنفسها على انها حركة تحرر وطني تستهدف حل المسالة اليهودية ، كان لذلك كله تاثيرا كبير في خداع الراي العام العالمي سهل تمرير هذه المؤمرة مما جعل الكيان الصهيوني ينجح في احراز شرعية دولية غير مكتملة ، يدور الصراع حاليا حول استكمالها او نفيها .

وقد ساعد نجاح الكيان الصهيوني في تهجير القسم الاكبر من الشعب الفلسطيني وهو ما جعل نسبة المستوطنين اليهود تفوق نسبة من تبقى من الفلسطينين على ارضهم ، ساعد في اخفاء جوهره العنصري الى حد ما .

ثالثا : بالنسبة للخصائص البنيوية الداخلية لهذين الكيانين :

لقد ادى تطور الاحداث في السنوات الاخيرة وما شهدته من احتدام للصراع ، الى سفور وبروز عدد من هذه الخصائص اهمها :

— زيادة توحد وتماسك الجماعة الاستيطانية في مواجهة السكان الاصليين وشعوب المحيط الاقليمي في ضوء شعور المستوطنين بتصاعد التهديد لامتيازاتهم ومصالحهم ومخططاتهم والناجم عن تصاعد حركتي التحرر الوطني الفلسطينية وجنوب افريقية .

— زيادة التوجه نحو التطرف والفاشية وزيادة ثقل التنظيمات السياسية ذات الطابع الفاشي في الخارطة السياسية (وصول ائتلاف الليكود الى الحكم ، وظهور عدد من التنظيمات الفاشية السافرة مثل هتحيا وكاخ في الكيان الصهيوني وتصاعد السياسة الفاشية لحكومة بريتوريا في جنوب افريقيا .

— الاتجاه المتزايد نحو العسكرة واقامة مجتمع الثكنة مما خلق خللا خطيرا في التوازن الاجتماعي والاقتصادي داخل هذين الكيانين .

ـ زيادة استخدام العنف تجاه السكان الاصليين وتجاه دول المحيط الاقليمي (هجمات اسرائيل على لبنان ، وسوريا ، وقصف مقر « منظمة التحرير » في تونس ، وهجمات جيش جنوب افريقيا ضد انغولا ، وبتسوانا ، وموزامبيق ، وضد حركة تحرر شعب جنوب افريقيا « سوابو » والمذابح اليومية ضد شعب جنوب افريقيا الاصلي .

ـ هامشية الصراع الطبقي الداخلي في محيط الجماعة الاستيطانية ، بحيث لا يمكن التعويل عليه بأي درجة لتغيير الطبيعة العنصرية لهذين الكيانين .

ـ وصول هذين الكيانين الى مرحلة التبعية المطلقة للامبريالية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية .

ان سفور وبروز هذه الخصائص ، وخاصة الاستخدام المتزايد للعنف من قبل المستوطنين وتزايد الفاشية والتطرف في اوساطهم ، وتحولهم الى مجتمع الثكنة ، يجعل من اساليب النضال السلمي في مواجهة عنصرية المستوطنين واحتلالهم غير ذات جدوى في هذه المرحلة ، ويجعل من الكفاح المسلح الخيار الوحيد لمواجهة هذين الكيانين ، من اجل الوصول الى الحقوق المشروعة للسكان الوطنيين (الشعب الفلسطيني وجنوب الافريقي) .

ومن جهة اخرى يمكن ملاحظة ان هذين الكيانين قد دخلا مرحلة الازمة التي تتجلى في :

ـ فشل هذين الكيانين في تغييب القضية الوطنية للشعبين الفلسطيني والجنوب افريقي واخفاقهما في التصدي للحضور المتزايد لهاتين القضيتين على الصعيد الدولي .

ـ فشل هذين الكيانين في اقامة جسور علاقة طبيعية مع المحيط الاقليمي ، وحتى معاهدة كامب ديفيد مع مصر لم تنجح في خلق علاقة

طبيعية على الصعيد الشعبي خارج النطاق الرسمي ، وفي هذه الايام يبرز مدى عزلة انصار هذه المعاهدة وعمق مازقهم في مصر .

وبالنسبة للكيان الصهيوني ، فقد رتب اتجاهه المتزايد نحو العسكرة الكاملة وسفور تبعيته المطلقة للامبريالية وانكشاف الدور الوظيفي الذي يقوم به في خدمة استراتيجيتها الى ازمة على صعيد الخلفية الايديولوجية ، لجهة عدم الثقة في عدالة تلك الايديولوجية وخاصة في اوساط يهود العالم الذين عرفوا عن الهجرة ، واشتد زخم تيار الاندماج في اوساطهم (على صعيد الممارسة الفعلية للاندماج عن طريق الزواج المختلط الذي تفوق نسبته الـ ٦٠٪ في اوساط يهود بعض البلدان (الولايات المتحدة ، المانيا) .

ولم يعد معظم اليهود خارج الكيان الصهيوني وحتى قسم كبير من اليهود داخله يرون فيه صورة « الوطن القومي المستقل » ولا « الجنة الموعودة » .

ان تفاقم ازمة هذين الكيانين الاستيطانيين والاتجاه الثابت للتغيير في ميزان القوى على الصعيد العالمي لصالح قوى التحرر والتقدم في العالم يعزز الثقة في حتمية انهيار هذين الكيانين الاستيطانيين ، وفي حتمية الوصول الى الحل الديمقراطي للقضيتين ، فلسطين وجنوب افريقيا وهو الحل الوحيد المتاح في الواقع لهاتين القضيتين .

مداخلة ثالثة

هشام الدجاني

في الندوة التي يقيمها مركز الدراسات الفلسطينية حول « عنصرية الصهيونية ومفهوم الاستعمار الاستيطاني »

افاض الزميلان الدكتور جبور والدكتور حلاوة في تناول ظاهرة الاستعمار الاستيطاني واكدا على كثير من اوجه التشابه بين النموذجين الصارخين لهذا الاستعمار ، وهما جنوب افريقيا واسرائيل

وما اود ان اشير اليه في مداخلتي القصيرة جانب جدير بالالتفات اليه ، وهو تناول اوجه الخلاف بين هذين النموذجين .

باديء ذي بدء ، اود ان انوه عن انه لا الازدحام السكاني في اوروبا ، ولا الاكتشافات الجغرافية كانا سببا من اسباب الاستيطان الصهيوني لفلسطين ، بمعنى آخر ، اذا كان هـذان السببان وراء معظم حـالات الاستيطان الاستعماري ، ومنها حالة جنوب افريقيا ، فانهما لم يكونا مطلقا وراء استيطان فلسطين .

كذلك لم تكن اللاسامية سببا لاستعمار فلســطين . وان كانت الدعوة الصهيونية قد حاولت استغلال اللاسامية لتحريض يهود اوروبا ودفعهم تاليا نحو فلسطين .

وثاني هذه الفوارق أن الصهيونية جاءت الى فلسطين وجاءت ايديولوجيتها معها ، بل ان ايديولوجيتها هي التي دفعتها الى استعمار البلاد . اما المستعمرون البيض فقد وجدنا في كثير من الحالات ان ايديولوجيتهم العنصرية قد تكونت بعد استيطانهم البلاد .

وثالث هذه الفوارق ان اسرائيل اكثر ارتباطا بالامبريالية العالمية من ارتباط جنوب افريقيا . ان علاقة الولايات المتحدة ، والغرب عموما باسرائيل هي علاقة تحالف وتعاطف علني مباشر ، بينما لانجد ارتباط الغرب بجنوب افريقيةعضويا او حتى ارتباطا علنيا.انه اشبه بالزواج السري او العلاقة غير الشرعية التي يحرص الزوج ، وهو هنا الامبريالية، على اخفائها وبينما نجد في الغرب راي عام ضد سياسة الابارتيد،وضد سياسة جنوب افريقيا ، لانجد مع الاسف مثل هذا الراي العام-اذا استثنينا بعض الاحزاب التقدمية او الفئات الواعية-ضدسياسة التميز العنصري الاسرائيلية ، وضد شرعية الكيان الصهيوني . واذا استثنينا القرار اليتيم رقم ٣٣٧ لعام ١٩٧٥ ، الذي اعتبر الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية ، فان كافة قرارات الشرعية الدولية كانت تكتفي بادانة او شجب الممارسات الاسرائيلية فقط (وهي قرارات كان يضرب بها عرض الحائط) دون ان يتعدى ذلك الى ممارسة اي ضغط او عقوبة ضد الكيان الصهيوني . ومن نافلة القول ان الضغط الامريكي،ومن ورائه الموقف الغربي عموما كان وراء عدم اتخاذ اية خطوة من هذا النوع .

ورابع هذه الفوارق ان الاقلية البيضاء في جنوب افريقيا ما تزال وستبقى اقلية اما في فلسطين المحتلة بعد استبدال شعب بشعب ، وتحول الوطن من وطن للعرب الى وطن لليهود . في عام ١٩٧٢ قال دايان امام طلاب معهد التخنيون في حيفا : لقد اغتصبنا بلدا عربيا وجعلنا منه بلدا يهوديا .

ان حالة اسرائيل ليست مجرد استعمار استيطاني ، بل هي ايضا استعمار اجلائي اي احلال شعب مكان شعب . وهي حالة مستمرة ومتزايدة ، وحتى وان اجبرت الاوضاع الاقتصادية الصعبة للكيان حكومته في السنتين الاخيرتين على الابطاء في عملية الاستيطان في المناطق المحتلة .

ان عملية الاستعمار الاستيطاني في فلسطين عملية مستمرة ومتزايدة وهي تتوسع باستمرار .

وخامس هذه الفوارق انه لا يوجد فجوة حضارية كبيرة بين اليهود الاوروبيين (الاشكينازيم) الذين جاؤوا الى البلاد في بدايات الاستعمار الاستيطاني لها ، وبين السكان اليهود الاصليين . بمعنى انهم لم يأتوا تحت الشعار الاستعماري التقليدي ، وهو تحضير سكان البلاد . ثم ان الكيان الصهيوني حصر بعد ذلك باليهود العرب من المشرق والمغرب العربي . وهؤلاء لم يكونوا في يوم من الايام ، في الاقطار التي كانوا فيها ، ارقى من سكانها المسلمين والمسيحيين . وهؤلاء كما هو معلوم هم الذين يشكلون المادة البشرية الاساسية للكيان الصهيوني اليوم .

واذا كنت قد لخصت هنا بعض ابرز الفوارق بين هذين الكيانين الاستعماريين فانني اود ان اخلص الى ما يلي :

ان اسرائيل اكثر واخطر من مجرد نموذج للاستعمار الاستيطاني ، حتى ولو كان ثمة بعض اوجه الشبه بينها وبين جنوب افريقيا . ان اسرائيل مع كونها نموذجا صارخا لمثل هذا النوع من الاستعمار ، الا انها في الوقت نفسه ، وقبل كل شيء حالة فريدة لا يوجد لها مثيل في التاريخ .

ومن أجل فهم صحيح لحقيقة هذا النموذج وطبيعته ، لا بد من معرفة الاسباب والمصالح القائمة وراء خلق هذا الكيان ، وماهية الدور

المنوط به . يقول ايلي فاينغرش ، وهو احد الصهاينة المعاصرين: « هناك العديد من السياسيين ورجال الفكر والادب المسيحيين الذين عملوا من اجل انشاء دولة يهودية قبل مؤسسي الحركة الصهيونية بزمن طويل . ويخطىء كل من يعتقد ان الصهيونية ابتداع يهودي مطلق. . . » .

ان فكرة خلق الكيان الصهيوني هي وليدة الفكر الاوروبي الاستعماري . ولا يوجد في هذا القول اية مبالغة . فهو يستند الى الوقائع والاحداث التاريخية .

وما اريد التأكيد عليه ان الهدف الاساسي للحركة الصهيونية ، وهو استعمار فلسطين ، هو فكرة بريطانية قبل ان تكون فكرة صهيونية . اي فكرة الاستعماريين قبل ان تكون فكرة المستوطنين . فكرة مرتبطة بمصالح بريطانيا الاستعمارية في المنطقة بالدرجة الاولى . وهذا ما اكده الكثيرون . من المؤرخين الغربيين من مسيحيين ويهود .

يقول والتر راكور في كتابه « تاريخ الصهيونية » :

« ان اهتمام بريطانيا في بعث اسرائيل قد ترافق مع مصالحها الامبريالية » اما ماكس نوردو ، احد ابرز المفكرين الصهاينة ، فقد كان صريحاً للغاية حين قال « لم يبق على الصهاينة الا ان تظهر للوجود . . . . والا فان بريطانيا ستضطر الى ابتداعها » .

والعلاقة اذن بين الاستعمار البريطاني وبين الصهيونية ليست علاقة تحالف او تشابك مصالح كما يخطىء كثيرون في تفسير طبيعة هذه العلاقة . انها علاقة خالق بمخلوق ان جاز التعبير . علاقة صانع بصنيعته . الصهيونية المسيحية هي التي اوجدت الصهيونية اليهودية وهي التي دفعتها لتكوين دولة . لقد كانت العلاقة بين بريطانيا والصهيونية العالمية على الشكل التالي : نقيم لكم دولة ولكن في فلسطين ، وفي فلسطين تحديداً . ومن اجل خدمة غايات واهداف تعرفونها جيداً . وهذا ما ادركه

زعماء الصهاينة كل الادراك . وهذا ما افصح عنه هرتزل في حديثه عن اقامة دولة حاجزة ، « وما اكده سوكولوف بصراحة في مذكرته الى الخارجية البريطانية في ١٢ / ٤ / ١٩١٦ ، والتي جاء فيها : ان اقامة كومونولث يهودي بحماية انجلتره سيشكل جدارا فاصلا بين السكان العرب في آسيا والعرب في شمال افريقيا » .

ان الكيان الصهيوني الاستيطاني بهذا المعنى ايضا هو حالة فريدة لا مثيل لها في التاريخ . ثمة نقطة اخرى لا بد من التنويه عنها . ان زرع الكيان الصهيوني في الارض العربية فلسطين لا بد ان يقودنا الى الحديث بايجاز شــديد حول الحالة الفريــدة من الصـراع التي اوجدهـا في المنطقة .... حالة الصراع العربي الاسرائيلي .

ان عملية زرع هذا الكيان هي عملية تحد للامة العربية . فاقتطاع جزء من كيان الامة العربية لا يعتبر تحديا لذلك الجزء بقدر ما هو تحد للامــة كلهــا .

ان العدو الحقيقي للاستعمار البريطاني والكيان الصهيوني لم يكن الفلسطينيون وحدهم ، بـل كان العرب جميعا . وليس من اجـل الفلسـطينيين يشن الكيان الصهيوني اليوم حملاته العسكرية على الاقطار العربية . والقول ان حقوق الفلسطينيين هي جوهر الصراع في المنطقة هو جهل وتضليل .

يبين تاريخ السنوات السبع والثلاثين الماضية ان حدود الاقطـار العربية المحيطة بفلسـطين كانت دائما حدودا منتهكه غير امنة . وليس الحدود العربية فحسب ، بل والعواصم العربية ايضا . والمشكلة ليست مشكلة حدود ، كما تحاول ان تختزلها اسرائيل ، بل مشكلة وجود ... وجود هذا الكيان الاستعماري الذي يهدد امتنا ورخاءنا وبقاءنا . مـن هنا خطورة هذا الكيان الاستعماري المزروع في قلب الوطن العربي.

يقول موشيه دايان : « سنمتلك نحن الارض في كل مكان ونوطن فيها اليهود بسلب الارض من سكانها الحاليين . ولن يوافق العرب على افعالنا . فاذا كنا نريد الاستمرار في عملنا لتكوين ارض اسرائيل ضد ارادتهم ، فلا مخرج الا باباداتهم . ويبقى مصيرنا مرتبطا بالبقاء في حالة حرب مستمرة مع العرب » .

ان مطامع اسرائيل وغطرستها لا تقف عند حدود جغرافية معينة . فقرار ضم الجولان عام ١٩٨١ ، واحتلال جزء من الاراضي اللبنانية والتهديد الدائم لامن لبنان وسيادته هما شاهدان على هذه المطامع « وضرب بغداد وتونس ، والتهديد بضرب اي موقع في الوطن العربي هي شواهد على ممارسة الغطرسة » .

اود ان اخلص الى القول انه مع خطورة احتلال الارض واقتلاع السكان فان ممارسة الاحتلال الاستيطاني ليست اخطر ولا ابشع ما تمارسه اسرائيل .

ان الجانب الاخطر هو ما بدأ الكيان يمارسه فعلا بعد حرب ٦٧ ، وبصورة اوضح واشرس في بداية الثمانينات ، وهو دور هولاكو المنطقة، دور الهيمنة المطلقة على المنطقة بمختلف وسائل الغطرسة والعدوان .

من هنا خطورة هذا الكيان الذي يستحيل التعايش معه او القبول به . لان ذلك يعني التسليم المطلق باحتلاله وسيادته ، والاستسلام المطلق لهيمنة قراره السياسي ان اخطر ما في هذا الكيان هو دوره . ومن هنا يأتي تفرده ليس عن الكيانات الاستيطانية الاحتلالية فحسب ، بل عن اية دولة اخرى في هذا العالم .

مداخلة رابعة : موفق محادين

ملاحظات على المنحى العام للندوة

بالرغم من الجهد النظري والسياسي الملموس ، الذي تضمنته ورقتا العمل المقدمتان في هذه الندوة ، الا انهما شأن المنحى العام لمختلف الاجتهادات ، الشائعة والسائدة ، بصدد موضوعية الاستيطان الاستعماري ، الكولونيالي ، اسقطتا العديد من المفاهيم العامة على هذه الظاهرة ، واعتبرتاها مفاهيم خاصة بها : (الايديولوجيا الشوفنية ، الاثنية ، او الطائفية الارتباط الاقتصادي والسياسي بالغرب الراسمالي ، تعايش الانماط الاقتصادية المختلفة العسكرية .... الخ) وهي جميعا ، رغم التشديدات والتمايزات القسرية ، مفاهيم عامة يمكن ان نجدها لدى معظم الكيانات المتخلفة .

فكل الكيانات المتخلفة مرتبطة بالغرب اقتصاديا ، ويتعايش داخلها اكثر من نمط اقتصادي ، وجميعها تملك اجهزة عسكرية وقمعية كبيرة ، وجميعها تستخدم الايديولوجيا الشوفينية ، في مواجهة اعدائها الداخليين والخارجيين .

وفوق ذلك ، فان المنحى نفسه ، منحى تخصيص العام ، هو نفسه ، الذي يدعو لتعميم الخاص ، ويقدم لنا الظواهر الاستيطانية في سياق واحد ، يزيد من البلبله ويشوش مفاهيم الصراع وسبل ادارته ، فالكيان الصهيوني ، حسب هذا المنحى ، هو جنوب افريقيا اخرى ، من

حيث النشأة ، والسياق ودرجة الارتباط الاقتصادي والسياسي بالغرب فيما الاول كيان اجلائي يستمد قوته واستمراره . من حركته في خدمة المصالح الامبريالية ، وفيما الثاني ، جنوب افريقيا ليس كيانا اجلائيا . ولا يعتمد في اقتصاده على الغرب ، ولا يخدم الامبريالية الا في نطاق حركته الخاصة لحماية نفسه ، والدفاع عن مصالحه .

ولا يدلل اتفاق جنوب افريقيا ـ موزامبيق ـ على دقة تعميم الخاص . كما اورد الدكتور جبور ، بقدر ما يدلل على العكس . فموقع موزامبيق في افريقيا ليس كموقع مصر في الوطن العربي ، وموقع جنوب افريقيا في المصالح الامبريالية في المنطقة ليس كموقع الكيان الصهيوني ، والاتفاق اخيرا ، لم ترعه الولايات المتحدة في اطار مصالحها المعروفة .

ان ما يمكن استخلاصه : في ضوء ما سبق : هو ان رؤية الكيان الصهيوني في ضوء الظاهرة الاستيطانية العالمية ، امر هام وضروري نظريا وسياسيا ، لكن الاهم من ذلك ، هو كيف نضع هذا الكيان : موضع التشخيص ، واستخلاص ما يميزه في اطار الظاهرة الاستيطانية الاستعمارية من زاوية آلية التخريب التي يطلقها في عموم المنطقة .

ان الكيان الصهيوني ، الذي حمل كل مظاهر الملحقات او المحيطات الامبريالية وبضمنها الارتباط الاقتصادي والسياسي ، وايديولوجيا الانغلاق والاحتقان ، وبقية العناصر ، التي لا تقتصر على الظواهر الاستيطانية الاستعمارية ، جعل من هذه المظاهر اكثر عدوانية وعنفا بسبب من خاصيته ، اللتين تميزانه عن بقية الظواهر الاستيطانية الاستعمارية ، وعن بقية البلدان التابعة :

١ ـ انه استيطان كولونيالي اجلائي ـ يرى في بقاء السكان العرب الفلسطينيين داخل فلسطين المحتلة مصدر رعب ونفي حقيقي ـ له ـ اولا ، وللطريقة التي يؤمن به استمرار وجوده ، خارجيا .

٢ ـ انه يمثل القلاع السلافية المعاصرة ، للقيصرية الجديدة ، للولايات المتحدة الامريكية .

ولذلك ليس منتظرا ان تتخلى الولايات المتحدة عنه ، كما تخلت فرنسا عن مستوطنيها في الجزائر الذين يزيد تعدادهم عن الصهاينة في فلسطين المحتلة ، وكما تخلت بريطانيا عن مستوطنيها في روديسيا (زيمبابوي) .

ولذلك ايضا ، فان حرص الولايات المتحدة والغرب الراسمالي عموما ، على جنوب افريقيا التي لا تشكل اي عبء اقتصادي عليهم ، ليس اكثر من حرصهم على الكيان الصهيوني الذي يعيش على مساعدات الولايات المتحدة والتسهيلات الاقتصادية والمصرفية الغربية .

النتائج الختامية لندوة مركز الدراسات الفلسطينية
حـــــول
عنصرية الصهيونية ومفهوم الاستعمار الاستيطاني

٢٩ / ٣ – ٢ / ٤ / ١٩٨٦

اقام مركز الدراسات الفلسطينية التابع لحركة فتح حلقة بحث علمية في الفترة ما بين ٢٩ / ٣ – ٢ / ٤ / ١٩٨٦ : تحت عنوان : « عنصرية الصهيونية ومفهوم الاستعمار الاستيطاني ، بمناسبة : يوم الامم المتحدة لمناهضة التمييز العنصري » الذي يوافق الحادي والعشرين من آذار من كل عام ، متذكرا أن الصهيونية هي : شكل من اشكال العنصرية والتمييز العنصري ، بحسب ما ينص عليه القرار رقم ٣٣٧ الصادر عن الجمعية العامة للامم المتحدة ، بتاريخ / ١٠ / ١١ / ١٩٧٥ ، وهو القرار الوحيد من بين القرارات الصادرة عن الامم المتحدة بشأن القضية الفلسطينية ، الذي يتعامل مع الصهيونية كايديولوجية .

ونظرا للحملة الصهيونية ـ الامبريالية التي يتعرض لها هذا القرار بهدف الغائه ، ونظرا للقصور العربي العام في التصدي لهذه الحملة والدفاع عن القرار المذكور ، فاننا نعقد هذه الحلقة العلمية بهذه المناسبة ، لعلنا نسهم بقسط متواضع في تذكير الجهات المعنية فلسطينيا وعربيا وعلى صعيد الحلفاء في الساحة الدولية بضرورة القيام بحملة عالمية للدفاع عن القرار رقم ٣٣٧٩ ومحاولة تصعيده من قبل الحضور العربي في الامم المتحدة ، لكي تتوحد معالجة هذه الهيئة الدولية للايديولوجيتين العنصريتين المتماثلتين : الصهيونية والابارتيد .

وقد عقدت الحلقة تحت شعار :

ـ من اجل معرفة علمية أعمق حول الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ؛ وعلى طريق المساهمة المتواضعة في بلورة فكر ثوري عربي لاينطلق من فهمه للصهيونية ، مما كتبه منظور وفلاسفة الصهيونية انفسهم فحسب ، وانما ايضا من فهم الاستعمار الصهيوني في بلادنا كواقع مادي تحكمه قوانين التطور الموضوعية للصراع،وطبيعة القوى المنخرطة فيه .

ـ ومن اجل تتبع الجذور الفكرية لأزمة العمل الوطني الفلسطيني الراهنة ، والتي يتعلق جزء أساسي منها بمفاهيم خاطئة لطبيعة ودور القاعدة الامبريالية الاستيطانية في قلب وطننا العربي .

وقد شارك في هذه الحلقة بورقتي عمل اساسيتين كل من الدكتور جورج جبور مدير مكتب الدراسات في رئاسة الجمهورية العربية السورية ، والدكتور صبري حلاوة ، الاستاذ المحاضر في معهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة الجزائر . وكانت الورقة الاولى بعنوان : « مفهوم الاستعمار الاستيطاني » والثانية بعنوان : « نحو مقاربة علمية للاستعمار الاستيطاني عامة والصهيوني خاصة » .

كما قدمت في الحلقة اربع مداخلات مكتوبة اعدها عدد من الباحثين المهتمين بموضوع الاستعمار الاستيطاني : (هشام الدجاني ، موفق محادين ، فايز سارة ، عامر الشريف) وذلك بالاضافة الى عدد من المداخلات الشفاهية التي قدمها المشاركون في الندوة ، والتي ساهمت في اغناء موضوع البحث .

وقد ادار جلسات الحلقة العلمية جابر سليمان ،وحضرها عددمن المحررين يمثلون مجلات الثورة الفلسطينية (فتح ـ الهدف ـ الحرية ـ الطلائع ـ المقاومة الشعبية) ، كما حضرها ممثلون عن وزارة الثقافة السورية ، وامين تحرير مجلة « المعرفة » التي تصدر عن الوزارة . وذلك بالاضافة الى مراسلي صحف « القبس » و « الوطن » الكويتية و « مجلة المنبر » التي تصدر في باريس .

ومع اخذ مختلف وجهات النظر والاتجاهات التحليلية التي تضمنتها ورقتا العمل والمداخلات بعين الاعتبار امكن التوصل الى الاستخلاصات والتوصيات التالية :

اولا ـ الاستنتاجات العامة بصدد ظاهرة الاستعمار الاستيطاني :

١ ـ ان ظاهرة الاستعمار الاستيطاني في فلسطين وجنوب افريقيا ليست الظاهرة الاستيطانية الوحيدة في التاريخ ، بل هي جزء من ظاهرة التوسع الاستعماري الاوروبي فيما وراء البحار . فقد عرف التاريخ البشري محاولات استيطانية عديدة ، منها :

أ ـ محاولات استيطانية ترسخت وتحولت الى دول وكيانات سياسية حصلت على الشرعية الدولية ، نتيجة لحسم صراعها مع السكان الاصليين وعدم وجود محيط اقليمي منازع لها ، أمثلة دول العالم الجديد في امريكا الشمالية واستراليا ونيوزلندة .

ب ـ محاولات استيطانية اخفقت في تثبيت كياناتها وفي الحصول على الشرعية الدولية فاندحر المستوطنون من مناطق الاستيطان ؛ نتيجة لعدم قدرة المستوطنين حسم صراعهم مع السكان الاصليين واستمرار منازعة الوسط الاقليمي لهم . ومثالها : الجزائر ؛ موزمبيق ، زيمبابوي ، وانجولا .

ج ـ محاولات استيطانية ما زالت تصارع من اجل تثبيت كياناتها الاستيطانية وتثبيت واستكمال شرعيتها الدولية نتيجة الاستمرار صراع الوسط الاقليمي ؟ كما في امثلة الكيان الصهيوني وجنوب افريقيا .

٢ ـ ان ظواهر الاستعمار الاستيطاني بحكم نشأتها هي عمليات استعمارية اوروبية بدأت مع مرحلة الاستعمار وتطورت في فترة انتقال الراسمالية الى مرحلة الامبريالية ؛ وحافظت على صلاتها مع المركز الامبريالي .

٣ ـ ان قهر مقاومة السكان الاصليين قد تطلب بالضرورة ومنذ البداية استخدام العنف وتطوير ادواته واخضاع كافة نشاطات المستوطنين الاخرى من اقتصادية وغيرها لصالح هذه العملية .

٤ ـ ان الفكر الاستيطاني بكافة تجلياته قد جاء تعبيراً عن مصلحة قوى سياسية استعمارية اوروبية ليبرر توسع وسيطرة هذه القوى على حساب الشعوب التي كانت اراضيها هدفاً للاستعمار الاستيطاني .

٥ ـ ان العنصرية هي احدى المكونات الاساسية لايديولوجية الاستعمار الاستيطاني ؛ والتي تتجسد في الممارسة العملية بعزل المستوطنين وعدم اندماجهم في المجتمعات الاصلية لبلدان الاستيطان .

ثانيا ــ التشابه والتباين بين الكيان الصهيوني وجنوب افريقيا :

تقودنا الاستنتاجات العامة السابقة الى رؤية التشابه في خصائص الكيانين الاستيطاني في كل من فلسطين وجنوب افريقيا . وهو الامر الذي تؤكده العلاقات الوثيقة بينهما وممارساتهما العسكرية والسياسية والاقتصادية بحق السكان الاصليين ، وكذلك طبيعة ارتباطهما بالنظام الراسمالي العالمي وخضوعهما للمركز القيادي للنظام الراسمالي وعدائهما للمحيط الاقليمي في الوطن العربي وافريقيا .

وعلى الرغم من اوجه التشابه بين الكيانين الاستيطانيين المذكورين لكونهما ينتميان الى ذات الشكل من ظاهرة الاستعمار الاستيطاني ، الا انــه يمكن رؤيــة عــدد من التباينات بينهما ، والتي لا تشكل تمايزا نوعيا . وهي :

١ ــ بالنسبة للمحيط الاقليمي الذي اقيم فيــه كل من الكيانين والاهمية الاستراتيجية لهما فان موقع الكيان الصهيوني جغرافيا يحتل اهمية اكبر من موقع الكيان العنصري في جنوب افريقيا ، وذلك بسبب خصوصية موقع الوطن العربي الجغرافية .

٢ ــ بالنسبة لطبيعة العلاقات القائمة بين الكيانين الاستيطانيين المذكورين مع المركز القيادي الامبريالي فان الدور الذي يقوم به الكيان الصهيوني في الاستراتيجية العالمية للامبريالية اكبر بكثير من ذلك الدور الذي يضطلع به الكيان الاستيطاني في جنوب افريقيا .

٣ ــ ان الكيانات الاستيطانية خارج فلسطين ، بما في ذلك جنوب افريقيا قد نشأت في مرحلة الهيمنة المطلقة للنظام الراسمالي : بينما جرت العمليات الحاسمة في تكون الاستعمار الاستيطاني في فلسطين بعد دمج وعد بلفور بصك الانتداب البريطاني وتحت رعاية وحماية الانتداب في النصف الاول من القرن الحالي ، حيث تقلصت الهيمنة الامبريالية وانحسرت اجزاء كبيرة من الكرة الارضيــة .

ثالثا ـ الخصائص العامة للاستعمار الاستيطاني (العام والخاص) :

قبل أن نستعرض الخصائص المميزة للاستعمار الاستيطاني والصهيوني في فلسطين ، لا بد من التأكيد على جملة من الخصائص العامة ، التي تنطبق على الكيان الصهيوني وجنوب افريقيا ضمن اطار علاقة الخاص بالعام ، والتي تنطبق بشكل أخص على الكيان الصهيوني :

١ ـ يتميز النظام السياسي للكيانات الاستيطانية بالازدواجية ففي الوقت الذي يمنح فيه هذا النظام حريات ديمقراطية ليبرالية للمستوطنين ، فانه لا يمنع فقط هذه الحريات عن السكان الاصليين ، بل يمارس تجاههم سياسة القمع والابادة .

٢ ـ يتميز النظام الاقتصادي للكيانات الاستيطانية بالثنائية الاقتصادية حيث يقوم هذا النظام على اخضاع السكان الاصليين لصالح اقتصاد المستوطنين . كما يتميز بالتبعية الاقتصادية الحتمية للنظام الراسمالي العالمي . وذلك بالاضافة الى ظاهرة العسكرة التي يتميز بها هذا النظام الاقتصادي .

٣ ـ يتفرد البنيان الاجتماعي للكيانات الاستيطانية بأولوية التمايز الاستيطاني على التمايز الطبقي . فالمستوطنون لهم مجتمعهم الخاص بهم ، والمنغلق على نفسه والمتميز عن مجتمع السكان الاصليين ، والمتعارض معه في المصالح والاهداف ، بحيث أن خلق شروط تطور هذا المجتمع يمر بالضرورة من خلال انهاء وجود المجتمع الاصلي ماديا وروحيا . وبهذا يتميز البنيان الاجتماعي بأولوية الوعي الاستيطاني على الوعي الطبقي .

رابعا ـ الخصائص المميزة للاستعمار الاستيطاني الصهيوني :

بالاضافة الى ماسبق فان هناك عدداً من الخصائص التي يتميز بها الاستعمار الاستيطاني الصهيوني بشكل خاص .

١ ــ ان هدف الامبريالية العالمية الاساسي من زرع الكيان الاستعماري الاستيطاني في فلسطين ليس نهب ثروات فلسطين في حد ذاتها ، نظرا لندرة هذه الثروات ، وانما من أجل استغلال ثروات الوطن العربي ، الذي يشكل جزءاً من المحيط الاقليمي لمنطقة الاستيطان الصهيوني (فلسطين) وذلك من خلال استخدام هذا الكيان لتطويع هذا المحيط لهيمنة الدول الامبريالية اقتصاديا وسياسيا .

ولذا فالعلاقة بين قيادة النظام الامبريالي العالمي والكيان الصهيوني هي من طبيعة عضوية ، لا يملك الكيان معها حرية الانفصال .

٢ ــ ان الطريقة التي يحصل بواسطتها المستوطنون الصهاينة على سبل معيشتهم ومنذ تاسيس الكيان تاتي على حساب الشعب الفلسطيني من جهة ، وعلى حساب نهب ثروات الوطن العربي من جهة اخرى . وذلك من خلال الاستيلاء على الارض الفلسطينية ونهب ثرواتها وتسخير الشعب الفلسطيني في خدمة اقتصاد المستوطنين ، هذا من ناحية ، ومن خلال الهبات والمساعدات التي يتلقاها الكيان والتي تتوزع بالحصلة على مجموع فئات المستوطنين ، وفي مقدمتهم « الهستدروت » من ناحية اخرى الا ر الذي ينفي امكانية ان ترتقي التناقضات الاجتماعية والاثنية في الكيان الصهيوني الى مرتبة الصراع الطبقي ، كما يعتقد البعض .

٣ ــ ان التصاعد المستمر في حجم المساعدات وحجم التوظيفات الامبريالية في الاقتصاد الصهيوني تؤكد طفيلية هذا الكيان وتعمق باستمرار تبعيته لاقتصاد الدول الراسمالية ، الامر الذي يؤكد ان الاتجاهات المستقبلية في تطور الكيان الصهيوني تسير نحو تعميق الارتباط والتبعية للامبريالية الامريكية في مختلف المجالات وليس العكس .

خامسا - الاستنتاجات السياسية :

خلص المشاركون في الندوة من خلال دراسة الظاهرة الاستيطانية في نشأتها واتجاهات تطورها ، وخاصة ظاهرة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، الى الاستنتاجات التالية :

١ - الترابط العميق بين النظام الامبريالي العالمي والكيانات الاستيطانية وخاصة بين الولايات المتحدة والكيان الصهيوني ، وبالتالي وحدة النضال ضد الامبريالية والكيانات الاستيطانية في فلسطين وجنوب افريقيا .

وفي هذا الصدد لا بد من التوقف عند حقيقة ان مستوى العلاقة بين حركة التحرر الوطني العربية بشكل عام ، والثورة الفلسطينية بشكل خاص ، وبين حركة التحرر الوطني الافريقية ، وخاصة في الجنوب الافريقي ، ما زالت دون المستوى المطلوب الذي تحتمه وحدة النضال ضد العدو المشترك ووحدة الاهداف والمصالح .

٢ - استحالة حل التناقض بين السكان الاصليين ومحيطهم الاقليمي وبين المستوطنين ، عبر اللجوء الى التسويات السياسية في منطقة الاستيطان ومحيطها ، حيث ان مثل هذه التسويات لا تلغي التناقض وكل ما تستطيع أن تفعله هو تخفيف حدته ليس اكثر .

٣ - عقم المراهنة على التحولات الديمقراطية في مجتمعات المستوطنين ، بسبب كون هذه المجتمعات اصطناعية مستزرعة لا يقوم فيها صراع طبقي بالمعنى المعروف في المجتمعات العادية ، طالما لم يتم تصفية النقيض وهو المجتمع الاصلي وطالما بقي هذا النقيض موجودا .

٤ - لعب المحيط الاقليمي دورا بارزا في تعميق ازمة الكيانات الاستيطانية في كل من فلسطين وجنوب افريقيا من خلال استمرار

الصراع معها .. غير ان الدور الحاسم في هذا المجال هو للعامل الوطني المحلي ، وذلك وحتى في حال عقد تسويات بين المحيط الاقليمي والكيان الاستيطاني (اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر والكيان الصهيوني، وكامب ديفيد الافريقي بين حكومة جنوب افريقيا وموزمبيق) فان الصراع يبقى مستمرا طالما لم يتم تغييب العامل الوطني ..

٥ ـ ان عنف المستوطنين ، والذي بحكم نشأة الكيانات الاستيطانية هو الذي يحتم ضرورة مواجهته من قبل السكان الاصليين بالعنف الثوري المضاد . ومن هنا يكتسب الكفاح المسلح الذي تقوم به الشعوب الخاضعة للاستيطان ضد المستوطنين شرعيته وحتميته .

سادسا ـ التوصيات :

اذ يقدر المشاركون في الندوة الاهمية البالغة التي يمثلها موضوع البحث في سياق الصراع الذي يخوضه الشعب العربي ضد الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، يوصون بما يلي :

التوصية الاولى :

ـ مناشدة جامعة الدول العربية والدول الاعضاء فيها لانشاء لجنة خبراء عليا للدفاع عن القرار رقم (٣٣٧٩) في الامم المتحدة وتصعيده .

التوصية الثانية :

ـ طبع اعمال الندوة في كراس يصدر عن مركز الدراسات الفلسطينية .

التوصية الثالثة :

ــ ضرورة ايلاء ظاهرة الاستعمار الاستيطاني الاهمية التي تستحقها من قبل الجامعات ومراكز البحث العلمي العربية . ورصد الجوائز التشجيعية لافضل البحوث في هذا المجال ، من قبل الهيئات العربية المتخصصة مثل (مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ــ مؤسسة شومان وصباغ وغيرهما) وكذلك ضرورة الاتصال والتواصل في هذا الصدد مع مراكز دراسة « الابارتيد » في القارة الافريقية وخارجها ، بالاضافة الى دراسة امكانية اصدار مجلة دورية فصلية عن احدى مراكز البحث العلمي العربية ، تعنى بالدراسات الاستعمار الاستيطاني .

التوصية الرابعة :

ــ ضرورة ايلاء موضوع الاستيطان وخاصة الاستيطان الصهيوني اهمية خاصة في الجزء الثاني من الموسوعة الفلسطينية ، الذي هو قيد الاعداد .

التوصية الخامسة :

ــ ضرورة اهتمام اتحاد الجامعات العربية ووزارات التعليم العالي في الوطن العربي ، بتضمين موضوع الاستعمار الاستيطاني في مناهج التعليم الجامعية .

التوصية السادسة :

ــ مناشدة المكتب التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم القيام بحملة تقييم لتقدير مدى النجاح في تنفيذ قراره ١٩٧٤ ، بانشاء

برنامج لدراسة الاستعمار الاستيطاني في نطاق معهد البحوث والدراسات العربية . ان احداهم جوانب عملية التقييم هذه هو ما قام بـه المعهـد من حرف البرنامج عن هدفه ، بحيث ان ما تحقق منه لا يجسد بأية حال الهدف الذي توخاه قرار المكتب التنفيذي .

التوصية السابعة :

ـ ايلاء الاهتمام الكافي من قبل الجهات العربية المختصة ، ومن ضمنها وزارات الخارجية بالاعلام الصادر عن الامم المتحدة ، بحيث تكون « عنصرية الصهيونية » بنداً حاضراً في هذا الاعلام ، وبشكلٍ خاص في الندوات التي تنظمها لجان الامم المتحدة المتخصصة حولَ فلسطين مثل لجنة ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الثابتة وغير القابلة للتصرف .

التوصية الثامنة :

ـ احياء يوم (١٠ / ١١ / ١٩٧٥) يوم صدور قرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم (٣٣٧) ، والذي يعتبر الصهيونية كشكلٍ مـن أشكال العنصرية ، عبر عقـد الندوات والمحاضرات على الصعيدين العـربي والدولي ، وعبر اصدار دورية سنوية من قبلَ جهة عربية مختصة في هذه المناسبة ، تسجل وتوثق للممارسات العنصرية للكيان الصهيوني بحق اهلنا في الاراضي العربية المحتلة فيّ فلسطين والجولان .

التوصية التاسعة :

ـ اعتبار يوم ٢٩ / ١٠ / من كل عام (ذكرى مذبحة كفر قاسم) يوما عربيا لمناهضة التمييز العنصري .

التوصية العاشرة :

ـ نظرا لجدة حقل الدراسات المقارنة للاستعمار الاستيطاني ، ونظرا لعدم ترسخ تقاليد علمية في هذا المضمار ، يضاف اليه عدم ترسخ تقاليد عربية لا سيما في حقل العلوم الاجتماعية . فان الندوة وقد لاحظت اختلالات خطيرة سواء في التقاليد العلمية او حقوق المؤلف لدى من تصدى لهذا الموضوع من بعض المؤلفين العرب فانها ترجو هؤلاء المؤلفين التحلي بالدقة والامانة العلميتين . وذلك في سبيل الحرص على تطور حقل هو في غاية الاهمية من الناحية العلمية ، وعلى مستوى الصراع القومي ضد العدو الصهيوني .

التوصية الحادية عشرة :

ـ وفي هذا الصدد يعلن مركز الدراسات بدمشق نفسه مركزا للاتصال ، من أجل تنظيم وتنسيق الجهود العلمية لدراسة ظاهرة الاستعمار الاستيطاني عامة والصهيوني خاصة . والمركز على استعداد لتلقي الاقتراحات بهذا الخصوص على العنوان التالي :

مركز الدراسات الفلسطينية / دمشق
ص . ب : ٩١٨٥
الجمهورية العربية السورية .

أدب

حلم عن خديجة

أحمد يوسف داوود

قصائد

عادل قرشولي

حلم عن خديجة

أحمد يوسف داوود

السلام لقلبي
وما كان شيئاً سوى شركٍ لتفاصيل عارِ خديجةَ
او مجد ما انكسر الحلم عنه ،
السلام لخالق خديجة في كل هذا الردى
والسلام لكم .

.. وقتها !
يدخلُ الآن ليلٌ ويحتل قلبي
فاخلقها كي تباركني .. ثم اقرع بابَ طفولتها
الساعة الآن : منتصف الحزن الا قليلاً
.. وقتها !

ورميت على ورق متعب شبه بحرٍ
سنوغل في في يأس هذا العبابِ ،
لعل المغامر يرجع مزدهياً بالكنوزِ !
بلى .. سوف نوغل !
/ ريحٌ على الباب تخبط /
قلت : سأخرج أولى التفاصيل
((ثديٌ ينفر تحت حرير الغلالة))
/ خبط على البابِ ... !!
أهمس لي : إنها قدمي .. فاستمع ! /

وأواصل خلق خديجةَ :
هم يخبطون المساء ، وأخبط بين الخراب فاطلعها ،
ثم أقرع باب طفولتها
وثلاث عقارب تزحف لاهثة فوق عصر صغيرٍ
/ كم الساعة الآن ؟! /
جاءت خديجة متعبة ، وارتمت في الدفاترِ ..
ذرت رماد سكائرها
ورمت بالفيوم على غرفتي !

قلت : وقت خديجة حرٌ
فها هي ذي الآن تملك غيماً
وها مطرٌ أول الليل !
باب طفولتها بين خطين في النورِ
يطلع منه فمٌ ناضج للغناءِ

سنابل تطلع ...،
تفاحة من يد الله طازجة ...
منه يطلع زهر .. بلابل
عشب .. جداول
ظبي لهذي البراري الفسيحة
والظبي يلعب ما بين ورقة عشب وقلبي .

قلت اشطب هذه العقارب
افسح وقتاً لوقت خديجة
آويت بحراً على جسدي كي تغادر فيه
وآويت شمساً بباب طفولتها
واخترعت كواكب منزلة بعد منزلة
وخلقت ....

للنبذ المشعشع في جسد طازج من يد الله
افرغت روحي من الحزن
اعلنت اني اشتهيت
وغاويت ثدياً ينفر في غلمة الوقت
لكن غيم خديجة مر ...

وذرت رماد سكائرها
/ اين يمضي إذن ذلك المطر ـ النهر ؟! /
قلت اداعب تاريخها .. فلعل ..
وافردته ، فرأت خريفاً بلا صفرة ،

ورأيت لها شجراً يتهيأ محرقةً لطفولتها ،
الظبي رائحة للسرور
رأيتُ .....
وصاحت :
توقفْ !!

توقفتُ ...
أنصتُ ....
في غلمة الوقت ريح الشمال تمسّ
يد من جليد على القلبِ ،
وامرأة في الحرير مكبلة بين مرآتها والسرير
ورائحة للسرور : الدمُ !
/ النهر يطعن ضفضافهُ ويخون !! /
لباب طفولتها كوكب باهت
ذابت الشمس منزلة اثر منزلة
وخديجة قد افردت حزنها !

نصف وقت خديجة موت .
وعاينت نسراً لبرية القلبِ
عاينت محرقة ...
والظباء ... الايائل ... تأتي جميعا مقطعة .
سوف يرمي بيانُ أناشيده
ثم ترسو مراكب في جزر لم تكن ،
ويفيق المغامرُ ...

باب طفولتها ججر
ورماد سكائرٌ .
قالت : سدىً
لاتنظف اذا هذه الغرفة الآن
فالدم فيها ..
سدىً ...
لاتنظف ..

يخون ويطمنْ ...

هذا الصراخ لجملتك العصبية
بالجملة الصوت والموتْ
نسر لبرية القلب
عشرون ظبياً .. قطيع أيائل ؟!!
لاشيء هذي الذكورةْ
بالجملة الصوت والموت
والنهر يمشي ويغدر
من يستغيث ؟ .. بمنْ ؟ !

في الحرير ... ؟ !
البيانْ أناشيده .. ؟ !
زبـد ......
لم اكن !!!
محرقات لجملتك العصبية

بالجملة الموت ..
والموت !
فرق إذا !!

★

وافرق وقت خديجة :
كانت أيائل متسولة من ذكورتها
وظباء مجردة للمسرة ...
شبه الخطيئة في خربة القلب ..
والساعة الآن : رابعة الحزن
إلا قليلاً .

وافرق وقت خديجة :
وقت خديجة لم يكتمل ،
فخديجة كانت ـ على الحزن ـ عاشقة ذات عمر
وهاهي ذي الآن قدام مرآتها !

سيكون اعتراف ...
بلى .. سيكون اعتراف !
هوى الكوكب المستفيث
وباب الطفولة لاشيء
كانت تحب يد الفهد وهي تفرد بين غدائرها
وتحب فم الفهد
رائحة النار في همسه المنكسر
رائحة الذكر الحي في جاده الـ ...

.. فهد : كان الذي لم يكن ، ويكون !!
وكان بعيداً كما الله عن قدر الكائنات
قريباً كمـا الله في اول العشق .
كان .. يكون ..
هو الفهد !!
والفهد : حلم ..
وزند ....
وما بين - بين

وخديجة تعرفه ، وتضيعه كل ثانية !
/ ذاك عصر صغير
ايائل معلونـة في فحولتها
والظباء مقطعة للمرة ..
كنت اشاهد ...
عاينت ..
اشهد اني عاينت
مزقت وقت خديجة والفهد .
مرت طفولتها كالسراب
وفكت اناشيدها المدرسية عن سرة الحلم
الا قليلا .

وهاهي ذي الآن تفاحة الله ناضجة للقطاف
رمتها على كل منعطف كي تعيش ... !
ومحرقة اثر محرقة كان ياتي رجال باسمال ارواحهم

وثياب معطرة
وجلود مزورة
وتبيع خديجة !!
ثم كانت تعيش خديجة
كانت تعيش ...
ولكنها حين ترتاح من ذلها لحظة تخلق الفهد
والفهد يخصبها بصبية حلم
فتبكي الصبية ، والفهد يذهب ...
والفهد لاشيء :
رب من المعدن المتسلط يقتله .
انما ....
مرة بعد أخرى سيقتله فيقوم
ويقتله ... ويقوم
ويقتله .. ويقوم
ـ كفى !
صرخت تحت ظل البكاء خديجة !

والملم وقت خديجة .
لامت شبه خضاب وقلت :
اباركها . الصمت متسع للرضا .
ومدت يدي فاستفاقت :
« انا ام طفلين من عابر معدني
ولكنه ليس يخرق روحي » .

وذرت رماد سكائرها .
الساعة الآن : فصلٌ .
وقدام مرآتها صوت بحرٍ يرش احتمالاته
مثلما رعشة امرأة لحظة الحب
أو لحظة القتل ...
قدام مرآتها تتناول زينتها
وتغطي انكسارات شيء تهشم في الروح
، ها نحن نخلق وقت خديجة ثانية في الحصار ..
ولم يترك العمر وقتاً له يتلملم فيه ويهدأ /

تلك خديجة في فندق ..
تصعد الآن في ضجة الفندق الاغنيات
فتفتح جرحاً قديماً
وتملؤه زبداً ...
تتذكر :

(سور ، وباب عتيقٌ ، وبعض ورود تجيء لها الشمس
من خلف مقبرة عند آخر درب الى السفح ...
شمس .. ويدفعها الباب .
والام رابضة قرب عكازها
الاخوة : اثنان لاتعرف الريح في اي ارض يضيعان
والثالث ارتاح في طرف المقبرة)

دقت الساعة العاشرة
كان صبحاً كئيباً كأول هجرٍ .

تقلب طفلان فوق سريريهما ..
قالت الخادم : هل أوقظ السيدين ؟
اجابت اصابعها رخوة : لا ..
القت الخادم الصمت فوق المكان وذابت .

وكانت خديجة تصلح شيئاً على الوجه
كل المدائن ضيقة، وخديجة زينتها تتكاثف .
بعد قليل ستهرب في السوق .

(هل كانت السوق مزحومة ياخديجة ؟!)
منذا سيعرف ان قناعا من العطر واللون يستر روحا
مهشمة ؟

(قرب عكازها تربض الام ، محروقة بكاء يفتش عن دمعة
كي يبارك عينين مطفاتين .
وما بين حين وآخر كانت تئن مهمهمة :
– ياخديجة قومي
يقول ضجرت
خذيني اليه !)
وصارت خديجة وردة قبر
ووردة عشق بلا عاشقين !!

وخديجة ترصف كحلا على طرف العين
تمضي به نحو سالفها :
(هي ذي شعرة .. شعرتان .. ثلاث ..
تقول : كبرت !)

رمت في الهواء تنهدها .
سوف تهرب بين الدكاكين بعد قليل !
بلى .. سوف تهرب !
لكنْ ...
وماذا لو ان مفاجاة وضعت قامة الفهد قدامها ؟!
هل سيلعنها .. ؟
هل سيغمض عينيه عنها فتصرخ صامتة او تئن وتهرّ ؟
ام ستقول له : لم تصر رجلي ؟!

وسيطرق حين ستهمس بالسر للسوق :
(منذ ولادة طفلته كان يقضي اسابيع في الحبس بعد مظاهرة وعراك
ويرجع يومين كيما يهيء شكل صراخ جديد عن الجائعين..

ويهرب ..
ياتي ذئاب بجزماتهم وكرابيجهم فيجرونها للنظارة ..
تاتي رسائله خلسةً :
« طفلتي ياخديجةُ !
هل رضعت امس ؟
هل وقفت ؟
هل تناغي وتهتف : بابا ؟
وهل ... ؟
طفلتي يا خديجةُ !!! »
ما قال « طفلتنا » مرة ..
ما تساءل : هل أنت خائفة يا خديجةُ ؟

او قال يوما : انا آسف ، وساهدأ ،
فانتظريني .

وكان لها جسد يتمزق بين انتظار المجيء وهم الذهاب
ويصرخ ..
كان لها جسد... !!
وهو ياتي ويذهب
ياتي ويذهب
سجن ، بيان ،مظاهرة ،
فاختفاء ، ..
فسجن ...

ويوما أعادوه في آخر الليل .....
كان حطاما مدمى !
فحولته اتلفت ..
هكذا ... هكذا ...
اتلفت !!)

★

وللمت وقت خديجة .
ماذا تريد خديجة ؟
لافائدة .
ستخلق في سوقها الف خلق
ولا فائدة .
السلام لقلبي ..

عشقنا طفولتها .
والسلام لهذا الرذى :
عبر عصر من الحزن تاتيك لحظة حب
وهاهي تقتلُ
لافائدةً .
وانا اين تمضي بروحكَ ؟
عمر خديجة من عمر ظبي
له محرقات تعد لرب من المعدن الدموي .
وترمي خديجة غيماً على غرفتي ثم لايمطر الغيمُ .
غيم خديجة مرّ ! .
بلى !!
غيمها مستباحٌ ، ولم يصل الفهد
والفهد كان الذي لم يكن ويكونُ .
وما زال كل خروج على القاعدة .

★

وسيرمي بيان اناشيده لمجاعات عصركَ
ترسو مراكب في جزر لم تكن
ويعود المغامر للسوقِ
والسوق تخلع سلطان من يعشقُ
السوق سوقٌ !!
وهذا الصراخ لجملتك العصبيةِ
بالجملة البيع والموتُ
والنهر يمشي .. ويغدر

من يستغيث .. بمن ؟
وقبل انطفاء خديجة تهمس :
ـ هذا رماد الايائل
هذي عظام الظباء
وها محرقات لجملتك العصبية
فرّق
فالجملة الحزن والعار
بالجملة الموت والنار
فرق اذا !

★

السلام لعار خديجة في مجد ما انكسر الحلم عنه
فوقت خديجة لم يكتمل .
والسلام لحزني فما زال شيء عن الفهد لم يكتمل
ذاك صوت من الحلم هزدمي بالصراخ :
ـ انتبه ...
فانتبهت ...
ثم زلزل غيم خديجة حتى رايت يد الفهد في قيدها .
فاستفقت ...

انتهت في ١٩٨٥/١/٢١

★ ★

قصـــــائـــد

مـــن «الحواريـــات»

عـــادل قـــرشولي

حواريـــة الجـــذر

وقـــال عبد الله لي
انت لم تعد انت
فلو كنت انت انت لما قبلت بما تقبل
وقال لي من يفقدِ الجذر يفقدِ الثمرَ
ومن يفقدِ الثمر يفقدِ الجذرْ
لان الجـــذر دون ثمرٍ عقيـــمْ
والعقـــم ناشـــفٌ كالحجـــر
وقـــال لي
ارحل إلى الجذر ترحلْ الى وطـــنْ
فمن لا وطنَ في وطنٍ له لا جذرَ له
ومن لا جـــذر له لا ثمر له
ومن لا ثمر له فهو وحيد وموحش كغصنٍ يابس
فلم تقل شفتاي سوى دمعة هربت من العين ٠

حواريـــة العشـــق

وقـــال عبد الله لي
مسمر انت على الصليب
والصليب لديك حبيب
سال دمك في خلاياه فصار منك وصرت منه
ولا فكـــاك منـــك لـــه
وقـــال لي
المجدلية تمسح لم تزل في زمن القهر قدميك بالعنبر
والمجدلية تسقيك لم تزل في زمن القيظ رشفة ماء
والمجدلية تطعمك لم تزل في زمن الجوع لقمة خبز
وقـــال لي
فلتطفىء الجمرة في الصدر
ولتخرس الشوق في الضلوع
فقلت آآآخ .

حواريــة الشــوق

وقال عبد الهالي
تجرحـك الخناجر كل ليلـة
لانك تشتاق حتى الى الشوق حين لا تشتاق
وقــال لي
موجعـة جـراح الخناجـر
في عالــم يعرف ان الشــوق
قد يصبح خنجرا في يد المشتاق
وقــال لي
ستبقى الجـراح موجعـة
وسيبقى الارق موجعاً حتى ينام الشوق فيك او تنام
فقلـت
لكنني اخاف ان ينام فيَّ الشوق فانام
واخاف ان انا نمت ان يطعنني خنجر
لا اشعر بعد طعنته بوجـع .

حواريـــة الشهاب

الى روح رياض الصالح الحسين

وقــال عبد الله لي
حين ياتي الموت يحبــك الجميع
حين ياتي المــوت يدركون مدى الخســارة
حين ياتي المــوت يذرفون من اجلك الدموع
حين ياتي الموت تتالق كشهاب وتصبح فجاة
عبقــري الساعة التي دقت لتعلن
موتــك الاخــير

وقــال لي
حين ياتي المــوت
يفتحون لك ابواب الوطــن
المغلــق كشرنقــة
للحظــــات

فقلــت
لكنهم لا يلبثــون
ان يلهثوا من جديــد
خلف موتهــم
وينســـوك وحيـــدا
في قبورهــم .

حواريــة الصوت الجارح

وقال عبد الله لي
الظمأ قاتل وانت ظاميء ولا مــاء
لان روحــك مرة كالعلقم وصوتك خافت كانين
وقــال لي
وان لم يتفجر النبع في الصخر
فالرمــل في الأفــق
وفي الأفــق قيــظ
وفي القيــظ ظمــأ
وفي الظمــأ عقــم
وفي العقــم مــوت
وقــال لي
فلتنزع العقم عن الــروح

ولتفجر النبـع في الصخـر
لكي تزرع في الرمـل الخصوبة

• •

وقـال لي
لكي تنزع العقم تحتاج الى ظفر
ولكي تفجر النبع تحتاج الى ظفر
ولكي تزرع الخصوبة تحتاج الى ظفر
وليس من ظفر لك سوى صوتك
ولكن صوتك خافت كأنين لأن روحك مرة كالعلقم
والصوت لا يبلسم في عالم الاصوات الجارحة جرحا
الا اذا جـرح

• • •

فقلـت
ومن تراني اجرح بصوتي الجارح ان جرحت
حتى ابلسـم ٠

حوارية الشرنقة

وقال عبد الله لي _
لا تطرق الباب ولا تصرخ
الوطن شرنقة وانت اليرقة
وقال لي
تريد ان تصبح فراشة
والفراشة غبية تعشق النور
والنور لي
وقال لي
انت في الشرنقة آمن حتى تموت ان صمت
فقلت
لكن الشرنقة معتمة
والعتمة قاتلة
والموت موت
فدعني ارفرف مرة في العمر
نحو نور باهر او زهرة يانعة
وليكن ما يكون .

المعادلـة

اتوتـد في ارض رمليـة
اتوحـد والامـة فوق العتبـات القبليـة
اتمـدد نحو جسـور العالم بحثـاً عن فخ الحريـة
اتفـرد في الالـوان القزحيـة

الامـة ام فـوق الارض
والارض على جسـر العالـم ،
والعالـم الـوان قزحيـة
والالـوان القزحيـة في الذات الفرديـة

وانـا اتوتـد ـ
اتوحـد ـ
اتمـدد ـ
اتفـرد .

١٩٨٥/٨/٤

عبد الله يدخل الغابة وحيدا

- ١ -

ظهر الخضر بعينيه مسيحا يانعا
قال : اينَ الرمح ؟
قالوا إن زند البطل المقدام رمحٌ
قال اين الزاد ؟
قالوا : ان جمر الشوق زاد .
قال اعطوني جوادا .
هللوا ،
قالوا وجدنا بطلا
يده سارية ، والشوق زاد ، والطموحات جواد

- ٢ -

دخل الغابةَ عبد الله
محمولاً على اكف الزغاريدِ
وحيداً .
ظهر الخضر بعينيه مسيحاً يانعاً
باركوه بالاهازيج ،
وراحوا ..
تركوه تائها سبعة ايامٍ عجاف بلياليها وحيداً
يده عاريةٌ ، والرمح زاد ، والمواويل جواد

- ٣ -

صارع التنين عبد الله
جولات طوالا
ظهر الخضر بعينيه مسيحاً يانعــاً
صاح : اين الرمحْ ؟
إن الزند زندْ .
صاح : اين الزاد ؟
لكــن
لم يجبه غير وقع الجوع في الاحشاء ،
والشوق الرماد

- ٤ -

عاد عبد الله من جولاته الكبرى
وحيــداً ـ
لم يزل في الغابــة التنينْ
آه ،
تركوه تائهاً سبعة ايام عجاف بلياليها وحيداً
متعباً عاد الى البيت وحيداً
مثقلاً بالقهر عاد

- ٥ -

ظهر الخضر بعينيه للحظاتٍ
مسيحاً يانعاً ،
ثم اختفى
علموه كيف يغفو ،
فغفــا

حجـر الصـوان

يأتي للحارةِ عبد الله
ينظر في عيني طفلٍ
يطلع من مزبلة كي يدخل مدرسةً
أو يخرج من مدرسة كي يدخل مزبلةً
فيرى في عينيه الوطنَ الآســنَ
ويرى الوطنَ الداكنَ
ويرى الوطنَ المتحركَ
نحو الخنجرِ .

حضـــارة الاسمنت

يتفتح عبد الله
نحو بيوت الطين فيصدمه الاسمنتُ
ويسلبه الوجهَ المجبولَ بطين الودِّ
ويرفعه لقدرٍ
يتراجع نحو متاريس الصدِّ ــ
يرى محراث الارض الظامئة
إلى عرقِ المحراث النابض بالخضرة يقتلع الجذرَ
ويحمله نحو الضوء الباهر في وله
ختماً
او بسطاراً ،
فيجوع ويصرخ « آه
لو ياكل إبن العم لقلت شبعت » »
لكن الجوعَ رداءٌ للاخـوةِ
في هذا البيت المستند الى اعمدة الماءِ .

★ ★ ★

يصدر شهرياً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

من سلسلة المختار من التراث العربي

من كتاب فتوح الشام

تاليف

محمد بن عمر الواقدي

اختار النصوص وعلق عليها

ماجد اللحام

من كتاب الأخبار الطوال

لأبي حنيفة الدينوري

اختار النصوص وعلق عليها

يحيى عبارة

لقـــاء

« إيف لاكوست »
مركز القـوّة والضعف
في العـالمين
العـربي والإسلامي

عزالدين وهدان

صدر مؤخرا عدد مزدوج من مجلة « هيرودوت » الفرنسية ، حول الجغرافيا السياسية للعالم الاسلامي وكان قد صدر قبل ذلك بسنوات ثلاث عدد خاص بالشرق الاوسط ، عالج المسالة نفسها بصورة مكثفة. حول اهتمام المجلة بهذه المسالة الحيوية وطريقة التعاطي معها ومعالجة مفرداتها وتفاصيلها ، كان اللقاء مع رئيس تحريرها البروفسور « إيف لاكوست » . الذي بدا حديثه بمقدمات نظرية حول مفهومه للجغرافيا السياسية :

« ان الاهتمام العلمي والموضوعي بعلم الجغرافيا السياسية الذي بدأ يبرز ، بصورة جادة ومؤثرة ، خلال السنوات الاخيرة ، قد اعاد لهذا العلم شرعيته وموقعه المنطقي والطبيعي ، بعد اعوام من الشك والحذر . وان احتلال هذا العلم لموقعه في التحليل والتشكيل والتقويم واعادة النظر في قناعات وبنى ومسلمات كانت تقوم على الملاحظة الهامشية المجردة ، وعدم الدخول في هيكلية المفردات والتفاصيل الحقيقية الاكثر تأثيراً في صياغة وصناعة تلك الظواهر ، قد احدث تغييرات محورية وجذرية ليس فقط في ارتكازات السياقات التاريخية وقواعد الجغرافيا المحنطة التي كانت التحليلات والقناعات تدور في فلكها وحيثياتها بصورة مسطحة موروثة بل ان هذا العلم قد اماط اللثام عن القدرات والمستلزمات المطلوبة لاعادة صياغة جملة من قناعات مبتسرة تتكىء على فهم ميكانيكي ضيق الافق ، وغير دقيق ، للظواهر التاريخية والجغرافية .

واذن ، فان اعادة الاعتبار المطلوب الى علم الجغرافيا السياسية قد مهد الطريق لتحليل وفهم وصياغة جميع الظواهر والعلاقات مابين المجموعات المكانية واشكالها : تساوقها وتصادمها وصراعاتها .. مما سيسقط نظريات ومقولات وتحليلات خاطئة ، او غير دقيقة ، ظلت متداولة باعتبارها مسلمات لاتقبل الجدل او المماحكة ، على امتداد عقود ، بل قرون طويلة ... وانسحبت ، بالتالي ، على قناعات وقرارات وافرازات في مجالات وانشطة حياتية هامة اخرى .

وبمناسبة صدور مجلة « هيرودوت » المتخصصة في هذا العلم ، ومعالجتها للعالم الاسلامي على ضوء المعطيات« الجيوسياسية »، كان لنا الحوار التالي مع البروفسور لاكوست :

● ماهي الفروق بين علم الجغرافيا والجغرافيا السياسية والجغرافيا الاستراتيجية ؟

●● تتمحور وظيفة علم الجغرافيا الاساسية في وصف «الاشكال المكانية» وتحليل جميع الظواهر التي يمكننا تحديدها وحصرها على الكرة الارضية ومنها المناخ والاقليم وعلم طبقات الارض والاقتصاد والدول والاديان . وتكمن مهمة علم الجغرافيا في وضع خارطة ، مثلا ، بانتشار الدين الاسلامي في العالم . وهكذا لاتنحصر وظيفة الجغرافيا بتقسيم الظواهر تقسيما جغرافيا ، بل تحاول فهم العلاقات التي تربط مابين هذه الاشكال المكانية التي اسميها « المجموعات المكانية » .

ويساعدنا تحليل هذه العلاقات ، اولا ، على التأكد من احتمال وجود توافق مابين هذه المجموعات المكانية واشكالها ، اما فيما يتعلق بالاسلام، فان هذا التوافق غير دقيق ، لان بعضهم اقام ترابطا ما بين انتشار هذا الدين وبين طبيعة البلدان والمناطق القاحلة او شبه الجافة .. هذا الكلام غير صحيح ، كون « المجموعات المكانية الاسلامية » غير محصورة فقط بالمناطق القاحلة ، بل تتعداها الى الاقاليم الحارة والرطبة والاستوائية مثل اندونيسيا ونيجيريا وغيرهما .. ويساعدنا التحليل الجغرافي ، ثانيا ، على فهم واقع العلاقات مابين هذه الاشكال المكانية وفهم كل حدث من شأنه احداث تغير ما ، والعناصر والدوافع التي تقف وراءه ، خصوصا اذا تركنا جانبا الحواجز الطبيعية المسماة « سلبية » وركزنا على التشابك « الايجابي » الحاصل ما بين تلك الظواهر . كل هذا يتم بواسطة الخريطة .

اما علم الجغرافيا السياسية ، فكان مرتبطا خلال عهود طويلة بالجغرافيا . فرؤساء الدول والملوك كانوا بأمس الحاجة الى الجغرافيين لكن ، بدءا من أواخر القرن التاسع عشر ، دخل الجغرافيون الفرنسيون والالمان الى الجامعة ، فأهملوا الجانب السياسي من علم الجغرافيا لانهم رغبوا في الابتعاد عن القضايا السياسية التي تولد سجالاً وصراعا داخل الطبقات الحاكمة . هذا الموقف العام دفع ، في المقابل البعض الى دراسة الظواهر السياسية على ضوء المعطيات الجغرافية . فنشأ عند ذلك علم مستقل يدعى « الجغرافيا السياسية » .

● لكن يبدو ان تاريخ الجغرافيا السياسية لايزال عرضة للتأويل والنقد بفعل النظرية النازية التي استندت الى هذا العلم . فهل ادخلت تعديلات على قواعد الجغرافيا السياسية لكي تحتل اليوم اهمية متناهية؟

●● للاسف ، ان الباحثين لم يميزوا بين التيارات العديدة في الجغرافيا السياسية ؛ إذ اعتبروا أن هذا العلم يرتبط ارتباطا وثيقا بالاطروحات النازية ، خصوصا في مرحلة مابين الحربين الكونيتين .ان هذا التحليل خاطىء بدليل ان الجغرافيا السياسية التي استعملها النازيون لخدمة اهدافهم ومصالحهم ، لاتشكل سوى تيار محدد من الجغرافيا السياسية . ومن الخطأ الشائع اطلاق الجزء على الكل .. وهناك مدارس واتجاهات في هذا العلم تساوي عدد المصالح في العالم. فلكل دولة كبرى اقليمية وجهة نظرها واستراتيجيتها الجيوسياسية .

● في هذا الصدد ، هل الجغرافيا السياسية رديفة للجغرافيا الاستراتيجية ؟

●● نعم ، الجيو استراتيجيا هي اخت الجغرافيا السياسية ، فعلم الجغرافيا الاستراتيجية ينحصر في دراسة الظواهر العسكرية والجغرافية ..

● ارى التمييز هشا بينهما ...

●● بالطبع ، يوجد نوع من الغموض بين هذين العلمين لان الجغرافيا السياسية تفرض بعض الاحيان تحليل بعض الظواهر على ضوء المعطيات العسكرية . لكن مهمتها لاتنحصر بذلك ، اذ قد تدعونا الحاجة ، مثلا ، الى دراسة الجغرافيا الانتخابية وتوزيع الناخبين على المناطق والمدن والقرى ..

● كيف تفسر الاهتمام الحالي بالجغرافيا السياسية ؟

●● بالحقيقة ، ان الجغرافيا السياسية ، اليوم ، هي حديث الدوائر الرسمية ومراكز الابحاث والدراسات . ويجب الحذر من هؤلاء الذين اكتشفوا ، متأخرين ، اهمية هذا العلم . كونهم يطلقون كلمة الجغرافيا السياسية على كل شيء من دون الاستناد الى القاعدة الجغرافية . اما اسباب هذا الاهتمام المتزايد فتكمن في سقوط الاعتقاد الذي ساد حقبة طويلة من الزمن ، بأن الامور هي سهلة التحليل والدراسة ، فاطلقت العبارات التبسيطية والمفاهيم التسطيحية ،مثل الشرق والغرب او الدول الراسمالية والدول الاشتراكية او الشمال والجنوب . اما اليوم فيمحور الاتجاه حول اعادة طرح الامور ودراستها بدقة اكثر .

● هل يمكننا رد هذا الانبعاث والعودة الى العلوم الجيوسياسية الى ضعف الايدلوجيات ووهنها في شكل او آخر ؟

●● طبعا ، هذا ما اردت قوله قبل قليل . في الواقع انالظواهر والاشكال الجغرافية السياسية معقدة جدا بخلاف الاعتقاد السائد الآن .

● لكن الا تعتقد ان هذا الاهتمام بالجغرافيا السياسية يتناقض، الى حد بعيد ، مع المعطيات على الارض ، خصوصا بعد اختراع اشكال متعددة من الصواريخ النووية ؟ .. الا ترى ان هذه الصواريخ تطمس علم الجغرافيا السياسية وتلغي القاعدة الجغرافية في التحليل؟

●● اعتقدنا ذلك في السابق . اما في الفترة الاخيرة فسادالاعتقاد بضرورة إجراء تحليل الظواهر الجغرافية للاسباب التالية :

ـ اولا : ان الدولتين العظيمتين لاتفكران باللجوء ، من حيث المبدأ ، الى الاسلحة النووية الاساسية ، بل يحتمل ان يكون نزاعهما « نيوكلاسكيا » . اذ يفكر الاستراتيجيون العسكريون اليوم باستعمال

وسائل تكتيكية غالبا ماتكون محصورة النتائج . ويسيطر الاعتقاد، كما اظهرنا ذلك في عدد سابق من مجلتنا « هيرودوت » بأن المناطق الجغرافية والاقاليم تبدو اساسية في حال اندلاع حرب «نيوكلاسيكية» في اوربا الوسط مابين المعسكرين ، حيث ستستعمل الدباباتالهجومية في منطقة جغرافية محددة بعيدا عن المدن والغابات .

ـ ثانيا : نتيجة تعميم الاسلحة النووية التي توجه لضرب هدف محدد ومحصور ، فصواريخ « كروز » مثلا تستمد فعاليتهامن الوديان والجبال والمناطق الجغرافية تحديدا لكي تخرج عن مراقبة الرادارات العسكرية المتطورة . لهذه الاسباب ارى ان اختراعوسائل نووية جديدة لايطمس علم الجغرافيا السياسية .. بل على العكس من من ذلك تماما .

● لننتقل الآن الى موضوع اكثر تحديدا : في عام ١٩٨٣ خصصتم عددا خاصا من مجلتكم « هيرودوت » لدراسة الجغرافيا السياسية في الشرق الاوسط . واليوم وبعد انقضاء ثلاثة اعوام تقريبا تنشرون عددين حول الجغرافيا السياسية للعالم الاسلامي ، هل توجد نقاط مشتركة بين هذين العملين ؟

●● استجابة لإلحاح القراء ورغبتهم في الاستزادة من المعرفة الجيوسياسية التي طبقناها على بعض دول الشرق الأوسط ، نزلنا عندمطلبهم ، فالقينا الضوء على العوامل الجيوسياسية في العالم الاسلامي الذي يضم الدول الاسلامية المحورية وتلك الموجودة على الاطراف .

● في عدد ١٩٨٣ ، كما اتذكر ، لم تخصصوا شيئا حولالدرسة الجيوسياسية الصهيونية ـ وكيانها في فلسطين المحتلة ـ وطموحاتها واطماعها « الامبراطورية » ـ الامبريالية ـ فاعتبره البعض ناقصا .

●● درسنا فقط استراتيجية الاستيطان الجديدة في الضفة الغربية فقط ، ولم نهتم بالاتجاهات الجيوسياسية والجيواستراتيجية « الاسرائيلية » . أعترف بهذا النقص وسنعوضه في اعداد لاحقة .

● في ضوء التحليلات الجيوسياسية .. ما هي مراكز القوة ونقاط الضعف في العالم الاسلامي ؟

●● بالحقيقة ، وبصراحة مطلقة ، أعتقد ان نقاط الضعف اكثر بكثير من مراكز القوة . اذ يضم العالم الاسلامي اكثر من اربعين دولة يوحد بينها الدين ، وتوجد معظمها في الاطراف ، ولها لغات وعادات وتقاليد محلية خاصة بها .. يضاف الى ذلك البعد الجغرافي الذي يفصل بينها مثلا ، ما بين نيجيريا واندونيسيا وبلاد جنوب شرق آسيا الخ ... والعلاقات السياسية القائمة في الاطراف فهي محدودة الى حد كبير ، بينما الامر على خلاف ذلك في المناطق والدول الاسلامية المحورية من المغرب حتى ايران وتركيا . اذ تسيطر علاقات غامضة ومعقدة جداً بين هذه الدول . ذلك ان المسؤولين يعتقدون ويقتنعون بأن الوحدة سهلة بفعل وجود ديانة ولغة واحدة . وهم يؤمنون بالوحدة كونها تؤمن التكامل ما بين الدول النفطية والدول الاخرى الفقيرة الموارد نسبياً .

هذا الاقتناع دفع بالعديد من الدول الى اعلان الوحدة من دون أي تحضير قاعدي شعبي . ومن مساوىء تلك الوحدات الفوقية الفاشلة انها تركت جراحاً لا تلتئم لدى القيادات والشعوب . ومرد ذلك الى انها تبن على قاعدة علمية ثابتة . وهي وظفت في سبيل غايات ومصالح بعض الدول على حساب الاخرى ، بالرغم من الايمان بالاخوة التي تربط ما بين « الشعوب » — يقصد الجماهير — العربية . لناخذ مثلا « السوق الاوروبية المشتركة » . فالمسؤولون ، وبدافع من واقعيتهم السياسية ، وبدافع من المعطيات اللغوية والتاريخية المغايرة وبنتيجة

الحروب المتكررة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، تقدموا بمشروع الوحدة المرحلية التي تأخذ في الاعتبار تطور كل دولة على حده . وحتى الان . وبعد انقضاء اكثر من عشرين عاما لا تزال هذه الوحدة في بعض جوانبها ، هشة .

● فيما يتعلق بمسألة الوحدة في العالم العربي ، تقول ان الحدود ما بين الاقطار العربية في المغرب هي قديمة جدا ، وهذا يتعارض مع اقتنا عاوساط كثيرة من الدارسين العرب .

●● على العكس ، ان الحدود بين الجزائر والمغرب وتونس قديمة جدا ، وتعود الى القرون الوسطى ، وهي ليست حدودا موروثة من العهد الاستعماري . وفي العهد العثماني قسمت هذه المناطق الى ولايات ، مقاطعات ولا تزال هذه الحدود على ما كانت عليه في السابق .. بالطبع هذه الولايات الثلاث قد توحدت في فترات تاريخية محددة لعدم وجود حواجز طبيعية واختلافات اثنية بينها . هذه التقسيمات لا تنطبق على المشرق العربي . وهنا تكمن اهمية التحليل الجيوسياسي الذي يميط اللثام عن الحقائق التاريخية ـ الجغرافية . فالحدود القديمة الثابتة هي فقط لجهة ايران وجبال « زغروس » . فيما يخص المشرق ، يوجد تنافس قديم جدا ما بين اربعة اقطاب جيوسياسية هي : دمشق وبغداد والقاهرة واسطنبول . وينتظر من تركيا في المستقبل القريب ان تقوم بدور جيوسياسي مهم لـ « حل » القضية الكردية .

● تقول في احدى كتاباتك « ان التجزئة الجيوسياسية في العالم الاسلامي ، اضحت المسألة المحورية عند التيارات الاسلامية الاصولية ولم يعد التطور الاقتصادي يستحوذ على اهتمامهم » . لماذا ؟

●● هذه الفئات ، خاصة المعاصرة منها ، لا زالت تتكىء على اطروحات اقل ما يمكن ان تصفها بأنها يوتوبيا . انها تطلب وتطالب بالكثير .. انها تفسر التاريخ من جانب ضيق واحد دون ان تعني بتحليل

الجغرافيا .. انها متقوقعة لا تغادر مقولاتها السلفية ولا تتعاطى مع الحقائق والتطورات انها تحاول تجميد مسيرة التاريخ والعودة به الى قرون ساحقة وهو ما لا تسمح به الجغرافيا .. اما معالجة المناحي الاقتصادية ، والتي تعتبرها غالبية المذاهب والنظريات والانظمة المعاصرة هي مهماز حركة الشعوب وصراعاتها ؛ فانها لديهم لا تعدو كونها مسألة التحامية . بمعنى أن مسألة البناء الاقتصادي تتحقق آلياً بعد الوحدة .

● هل دفعتك التجزئة الجيوسياسية في العالم الاسلامي الى تمييز الدول المحورية عن تلك الموجودة في الاطراف ؟

●● لنعد الى التاريخ . لقد انتشر الدين الاسلامي في مجتمعات اقطار واقاليم متعددة لا تتكلم اللغة العربية مثل اندونيسيا ونيجيريا والهند الخ .. والتي لها حضارة مادية مغايرة ، وهذا بخلاف الاقطار في الشرق الاوسط وبعض الدول المطلة على البحر الابيض المتوسط . وتجدر الاشارة هنا الى أن العرب لا يشكلون الا ربع المسلمين في العالم .

● اقر معك بأن مصر وبلاد فارس تتمتعان ، منذ القدم ، بكيان جيوسياسي تاريخي لكن اعتقد . بأنهما لم يسلكا الطريق نفسها عند الفتح الاسلامي . وهنا ارى أنك اهملت تمييزاً اساسياً بين العرب العاربة والعرب المستعربة واولئك الذين اعتنقوا الدين الاسلامي . من هنا انه من الاكثر والادق علمية ، من الناحية التاريخية والجيوسياسية اقامة ثلاث دوائر بدل اثنتين للعالم الاسلامي ؛ كما وردت في فرزكم السابق لذلك العالم .

●● ... قد تكون ملاحظتك صائبة . لكن الباحث الذي يريد دراسة العالم الاسلامي ، في ضوء الجغرافيا السياسية ، يلجأ الى اختيار منهج عام يوافق هدفه . وفي هذا الصدد لجأت الى تمييز المركز عن الاطراف على طريقة المستشرقين ، ولم استند اطلاقا الى نظرية « سمير امين » الذي ينظر للنمو غير المتكافىء للاقتصاد العالمي بفعل

سيطرة الدول الصناعية (دول المركز) على دول العالم الثالث (دول الاطراف) . ولقد اطلقت تسمية المحاور على البلدان المفتتحة في العهود الاولى للاسلام اما اسلام الاطراف فيضم الاقطار والاقاليم التي اعتنقت الدين الجديد بدءا من القرن الحادي عشر والمؤلفة من آسيا الجنوبية وجنوب شرق آسيا وافريقيا الشمالية .والمناطق التي تقع جنوب الصحراء الغربية .. اما الملاحظة التي تقدمت بها وعرضتها فانني ، شخصيا ، سأوليها الاهتمام الاستثنائي المناسب في الاعداد القادمة من مجلتنا .

● ملاحظة ثانية اذا سمحت .. عندما قرات العدد الاول من مجلتكم « هيرودوت » فوجئت بعدم مساهمة الباحث « اكزافييه » « دوبلانول » حول العوامل الجيوسياسية التي حكمت انتشار الدين الاسلامي مع انكم كنتم قد وعدتم القراء بذلك . لماذا استبعدت دراسات وابحاث هذا الكاتب ، وهو الذي كان قد عالج هذا الموضوع وغيره في ابحاث ودراسات ومحاضرات وكتب عدة ؟

●● بالطبع طلبت من « اكزافييه دوبلانول » المساهمة في هذا العدد ، تأسيسا على وعدي للقراء وعلى اتفاق مبدئي معه ، ولكن بدون تفاصيل حول الموضوع الذي سيثيره أو يناقشه . لكنه للاسف رفض بسبب ضيق وقته وارتباطاته .. ومع ذلك فانني يجب ان اقول امرا هاما حول « دوبلانول » ان هذا الباحث لم يخص بدراساته الا اسلام المركز ، ولم يتطرق الى الاسلام خارج هذا الاطار . ان ملاحظاتي الاساسية على اعمال « دوبلانول » انه عمم المقولة التالية : ان الاسلام انتشر في المناطق والاقاليم ذات الطبيعة شبه المجدبة والصحراوية .. وهذا كلام غير دقيق ، كونه يتناسى الاقطار التي اعتنقت الدين الاسلامي منذ القرون الوسطى حتى يومنا هذا . من هنا اعتقد انه من الاصح تحليل العالم الاسلامي من الناحية الجيوسياسية على قاعدة الوحدة والتنوع .

★ ★ ★

يصدر قريباً من وزارة الثقافة والارشاد القومي

تطور الأفكار في الفيزياء

من المفاهيم الاولى

الى نظريتي النسبة والكم

تاليف

البرت آينشتاين

ليوبولد إنفلد

ترجمة

د. ادهم السمان

الهذيان والأحلام

في قصة « غراديفا » جنسن

تاليف

سيغموند فرويد

ترجمة : نبيل ابو صعب

مراجعة : صياح الجهيم

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الحياة المسرحية

العدد ٢٦-٢٧ ١٩٨٦

مجلة فصلية تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مهرجان دمشق التاسع للفنون المسرحية

المسرح في الهند القديمة - المسرح الاول - أفينيون ١٩٨٥







صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الحياة التشكيلية

العدد ٢١ - ٢٢

مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومي

